سيرتها الأولى

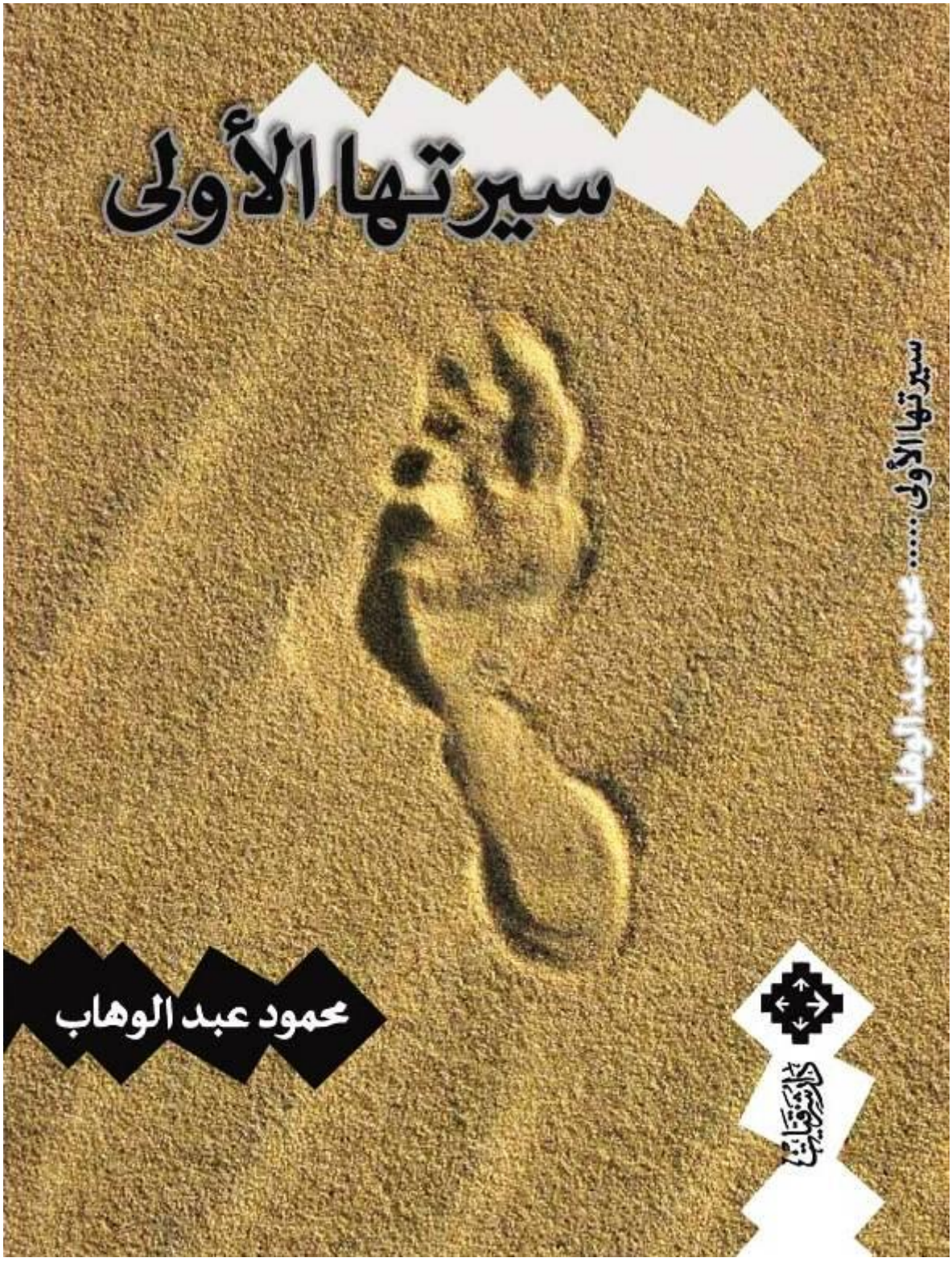

محمود عبد الوهاب

سيرتها الأولى ..... محمود عبد الوهاب

سيرتها الأولى

رواية

محمود عبد الوهاب محمود

أشكر سهام بدوى التى أعلمتنى –منذ سنوات قليلة- أننى أستطيع أن أكتب، ومحمود الوردانى الذى نبهنى إلى بُعد كان ناقصاً فى الرواية، وسامح الأسوانى الذى كان قاسياً فى نقده للغة مما دفعنى بشدة نحو إصلاح بعض التراكيب اللغوية، ثم لا أنسى علاء خالد الذى أطمئن دائماً إلى حكمه وفكره المتقدم والمميز، كذلك أشكر حسن خضر الذى قام بجهد مشكور فى تصحيح النص، وأخيراً العزيز حسنى سليمان صاحب الملاحظات شديدة الدقة، أعود ثانية إلى سهام التى قرأت النص قراءة أخيرة متفانية وشطبت بقلمها الأحمر فى قسوة جميلة كل ما رأت حذفه من الرواية.

وأخيراً أشكر نسمة مظهر التى أهدتنى إياها.

كل هؤلاء كانت لهم مساهماتهم المضيفة لقيمة النص، حتى كأنى أحس أحياناً بأنهم قد كتبوه معى، لكننى لابد وأن أتجاهلهم الآن، بعد أن بدأت أشعر بأننى الوحيد الذى لم يفعل شيئاً.

محمود عبد الوهاب محمود

إلى صديق العمر الذى رحل قبل أن يقرأ الرواية.

إلى مصطفى هاشم الذى رحل فجرالجمعة، وصفعنى صفعة المفاجأة.

سأعاتبه الآن عتاباً قاسياً:

الناس بتقول "سلامو عليكو" يامصطفى!

لكنك ــمع ذلكـ ما تزال أحق الناس بالإهداء.

١

بعد أن افترقت و"نسمة مظهر" لم يعد شىء أبداً كما كان.

لا الدنيا أصبحت كما كانت تبدو، ولا النظرة إلى الحياة عادت كما كانت قبلها:

نظره قصيرة، أحادية، لا تسبر الأغوار.

الآن وقد خبرت أستار الأحجبة، وأكاد أنفذ منها، هناك شىء جديد أراه بعد أن جاوزت الأربعين بثلاثة أعوام.

لقد عرفتها فى النصف الثانى من ثلاثينيات العمر، والآن وأنا أنظر إلى الفارق بين الحدثين، أدرك أنه عمر كامل.

باختصار، أريد أن أقول:

ـ أنا لم أعد أنا، ولن أعود. أصبحت أحمل "نسمة" فى صدرى ولا مكان لشىء آخر.

أفكر الآن فيما يمكن أن أفعله.

هل أستطيع أن أمحو الأطياف والصور وصدى الأصوات؟ أصوات تلك الضحكات العالية الممتد رنينها امتداداً بلا انتهاء؟

حينما يكون الهذيان أجمل من الحياة، كيف يمكن أن أتركه وإلى ماذا أعود؟ أأعود إلى إحباطات، وورطات، وواقع لا تتسع خاناته إلا لأرقام فى شهادات ميلاد وموت؟

الموت.

ما هو الموت؟ وماذا يعنى سوى السكون على حال؟

أأنا ميت لأنى ساكن؟

أم أنا حى بألمى؟

أم أنا نصف هذا ونصف ذاك؟

نصفى الميت يجذبنى إلى الموات.

ونصفى الحى ينحو بى فى الاتجاه الآخر.

وأنا فى المنتصف.

أأغادر نفسى وأهرب من هذا وذاك؟

وإلى أين أسير ونفسى تلازمنى ؟

وإذا ارتدت لى "نسمة" لعاد كل شىء والتأم.

وإذا لم تعد؟

٢

لم يكن الطريق الصحراوى يبدو هكذا عندما كنت شاباً صغيراً.

لم تكن هناك بوابات ولا رسم مرور، ولم تكن به كل هذه المساحات الخضراء التى أراها الآن، ولا الأسوار الضخمة للمزارع الخاصة على جانبى الطريق، ولا محطات البنزين الكثيرة، ولا الاستراحات المختلفة الطرز مثل هذه التى أقترب منها الآن.

ليس الطريق وحده هو الذى تغير، أنا أيضا تغيرت كثيراً. غادرت الإسكندرية وامتلكت شقة فى القاهرة، وسيارة كورية الصنع هى التى أقودها الآن عائداً من الإسكندرية، فى رحلة لنسيان ما فات.

لكن ما يزال الوقت مبكرا جدا للنسيان، لأنى لا أزال فى خضم الأحداث.

النسيان أم اجترار الأحداث وتفقُّد رائحة الأماكن؟

ما زال الوقت مبكراً جداً أيضاً للحكى، حيث يبدو الحكى فى أوله عبئاً ثقيلاً نظراً لتدافع الذكريات. تدفع كل منها الأخريات للخروج من النفق المظلم إلى سطرالورق.

وأنا عائد من سهرة ثقيلة ورأسى به هذا الطنين المزعج الذى له وطأة.

هل هذا فبراير؟ السماء رمادية اللون معتمة. السيارة تكاد تقتلعها العاصفة وتلقى بها إلى الرمال. مسّاحات الزجاج الأمامى تعمل منذ أكثر من نصف ساعة بلا توقف. والأشجار تنحنى أمام العاصفة. زخات المطر تقصف سقف السيارة ثم ترتمى على الطريق. بعض الرمال تشربت المياه فصار لونها داكناً نوعاً ما، وأنا بداخل السيارة وزفيرى يترسب على الزجاج الأمامى الداخلى فأمسحه بيدى ، أعود فأمسح يدى فى الكرسى المجاور.

كنت قد انتهيت من فنجان القهوة فى الاستراحة، وألقيت بجسدى فى السيارة مكملاً الطريق عندما رن جرس الموبايل بداخل جيبى، أخرجت الموبايل ونظرت إلى الاسم فدق قلبى.

كان اسمها مكتوباً على الشاشة باللغة الإنجليزية وبالحروف الكبيرة هكذا: "NESMA ".

تعطينى الحروف الكبيرة إحساساً بالهيبة، ولا أدرى عندما كتبت اسمها منذ أعوام، هل تعمدت كتابته بالأحرف الكبيرة تهيباً منها، أم أن الأمر جاء مصادفة؟ كان هذا الخاطر يشغلنى من قبل لكننى لم أستطع أبداً أن أتذكر.

لاحظت أيضا ـ فيما بعد ــ أن اسمها هو الوحيد المكتوب بهذه الطريقة.

لكن ألهذا أهمية الآن؟

صوتها مختنق على الجانب الآخر، وأنا أعرفها عندما تكون فى مثل هذه الحالة. أسميها حالة "النكوص" وأسعد بها، أسعد برجوعها إلىّ.

- إنت فين؟

- أنا فى الصحراوى.

- رايح ولا راجع؟

- جاى.

لحظة صمت.

أحسست وقتها بما كانت تريد أن تقوله، وكان من الممكن أن أقترح أن نلتقى، لكنى استمرأت التجاهل، فدقيقتان من الدلال على نسمة تساويان عمراً من سعادات مختزنة.

سمعت صوت تنفسها الخارج مع دخان سيجارة:

- أخبارك إيه؟

- أنا! الحمد لله.

واستعرت جملتها:

- ليس لدى ما أشكو منه.

ضحكت ضحكة خفيفة واهنة، أنا أعرفها، هى تريدنى الآن، ليس على المستوى الجنسى ولكن بصفة أشمل وأعم على المستوى الإنسانى. هى تريد أن تترك لى الليلة زمام العلاقة. ولأنى أعرفها، فأنا أعرف أنها لن تدعونى لأنها لا تنطق بالرغبة، لكنها فقط تشير، لكن إذا لم أستجب تذوى وتضعف. تذكرنى دائماً بأنها ملكة روسية من عهد القياصرة زال عنها الصولجان، لكن كبرياءها بقي.

- تحبى أجيلك؟

بصوت حاولتْ أن تجعله مندهشاً ومتفاجئاً، ثم به مسحه من تنازل:

- تعالَ.

بيتها أنيق. كل ما فيه ينطق بلمستها النازعة نحو التأله. كل شىء فيه مصنوع لكى تكون هى صاحبته ولكى لا يصلح لأحد سواها.

الستائر بيج خفيفة اللون. عندما تخترقها الشمس تفيض الأشعة إلى الداخل محملة باللون الذى يتوغل فى المقاعد والسجاجيد وخشب الأرض "الموسكى" ذى اللون الأصفر الفاتح. أحس به يتوغل أيضا فى صدرى ويجعلنى أتوحد مع المكان.

المكتبة ذهبية اللون، نفس اللون المستعمل فى بعض البراويز الخشبية للصورالرخيصة. وكتب بالفرنسية وبالعربية تملأ المكتبة، وأنا لا أعرف الفرنسية، لكنى لمّا نظرت غير مرة فى الكتب العربية وجدت معظمها متعلقاً بالتخصص الأكاديمى، والقليل كان متعلقاً بمواضيع ثقافية متفرقة.

جهاز الكمبيوتر وأدواته موضوع على المنضدة فضية اللون الخاصة به. بعض المناضد الصغيرة، ثم الكنبة ذات المقعدين الكبيرين. والتليفزيون الصغير أمام الكنبة، والريموت كنترول موضوع على المنضدة الصغيرة بجوار الكنبة، كما يوجد ريموت آخر للدش، ومنْفضةٌ سجائر تزاحم لتجد مكاناً على المنضدة الصغيرة التى مازال عليها أن تسع علبة السجائر والولاعة والكأس. هذا هو الجزء الأكثر استعمالاً على الإطلاق من بيت نسمة، والذى نطلق عليه : "الخُنّ".

وهذا هو الفوتيه الكبير الذى اعتدتُ الجلوس عليه عندما أصل، ثم بعد قليل أنتقل بجانبها إلى الكنبة.

تفتح لى نسمة الباب. ترتدى قميص نوم أبيض من الحرير، قصيراًغيرَمعتاد. ساقاها طويلتان، خمريتان، مشدودتان، وجميلتان أيضاً. وعقد أبيض كلاسيكى حول عنقها؛ حباته كبيرة قليلاً. وروج أحمر بلون دم الغزال؛ نادراً ما كانت تضعه داخل المنزل أو حتى خارجه.

كنت أفكر فى معنى هذا الاحتفاء الكبير وأحسست بالإثارة.

شعرها كستنائى وبالكاد يغطى مساحة الرقبة الخلفية.

الجبهة مائلة إلى الخلف قليلاً عند صعودها إلى أعلى، والوجنتان طويلتان بعض الشىء عن المعتاد، تبدوان لى متآمرتين وكأنهما توفران مساحة أكبر لتلقّى الحب. لكن التلقّى – مع ذلك - يتم بمنتهى الكبرياء والعزة.

الأنف صغير ومستدير كأن الإبهار هو وظيفته الأولى. كثيراً ما كنت أمسكه بيدى وأمررعليه أصابعى، وكنت أشعر فى تلك الأثناء بانتشاء لا يمكننى التعبير عنه.

الفم صغير. الشفة العليا صغيرة ومنحنية من منتصفها إلى أعلى، تبدو لى متوافقة مع قيم الاستعلاء التى كانت كثيراً ما تحرك نسمة بين الحين والآخر، والتى كانت تخفى وراءها – فى رأيى – قيماً أخرى أكثر بساطة.

عندما تنام نسمة تبدو شفتاها أكثر كسهل منبسط، تستطيع أن تجرى عليه وأن تقف؛ كأنهما توفران على القادم عذاب النتوءات.

عندما تنام نسمة، تعطى شفتاها شكل الاستسلام غير المشروط. مبللتان بشهوة عميقة. شهوة قياصرة. شهوة أكّالة. لا تتوقف حتى تطلب، ولا تكاد تنام حتى تستيقظ.

تفتح لى الباب. ترتمى فى حضنى. رأسها على كتفى. ذراعاها مطوقتان رقبتى بتصلب. يداى على ظهرها من أعلى تجذبانه، وتضغطان المسافة التى بينى وبينها إلى الصفر. كفاى منبسطان على ظهرها أضغط بأصابعى عليه.

رأسى فى شعرها الكستنائى وخدى ملاصق لخدها وعطرها الماضى يسرى فى دمى ويعطل جهاز المناعة.

تربت نسمة على ظهرى فيما يبدو أنه نوع من المواساة ـ ممزوجة بالاعتذار- عن الفترة التى فقدتها فيها، بينما كنت مندهشاً ليس من رجوعها إلي، ولكن من صبغة الاعتذار التى شابت اللقاء، وذلك لأن نسمة كانت – بصفة عامة ـ نادرة الاعتراف بالخطأ.

وبينما كنت أرفع شعرها الذى انسدل على جبهتها الجميلة التقت عيوننا فدمعت.

****

الدش الساخن لا يغسل آلام الموقف فحسب، وإنما يضاعف حلاوته أيضاً، فقد خرجتُ من الحمام، وانتقلت إلى غرفة النوم، فتحتُ دولابها الأبيض وأخرجت بيجامتى الصوف. لبستها بسرعة وأسرعت إليها فى المطبخ حيث كانت تجهز شرائح التوست بالجبنة، احتضنتها من الخلف وقبّلتها فى رقبتها.

تأخذ التوست بينما أفتح الثلاجة وأتبعها حاملاً معى زجاجتى بيرة، ونذهب إلى "الخُنّ".

تتمدد نسمة على الكنبة وقدماها ملاصقتان لفخذى فى وضع رأسىّ. أبدأ فى تناول التوست بينما تخفض صوت التليفزيون إلى الصفر وتشعل سيجارة.

لا توجد مساحة للصمت الخاوى بينى وبين نسمة، أو للتردد فى كيفية افتتاح الكلام ، حيث تبدو لنا الآن القطيعة التى كانت بيننا تاريخاً قديماً جداً.

ـ أسكت على اللى حصل لى النهارده.

ـ إيه؟

ـ مش قابلت الوزير فى الأسانسير؟

فمى مشغول بالأكل. أرفع حاجبىّ قليلاً لأشجعها على مواصلة الكلام.

- وبعدين؟

- ولا حاجة، تصور إنه لما وقف الأسانسير رفض يدخل؟ قال لى اتفضلى وعاملنى كهانم.

اندهشت.

- طب وانتى عملتى ايه؟

تضحك وتهز قدميها فى ساقى:

- ولا حاجه، خرجت طبعاً أهز كتفى قدامه بمنتهى "الألاطه".

نضحك. أنتهي من الأكل. قبل أن تبدأ فى سرد الحكاية التالية أقوم وأحضر زجاجتين أخريين. أعطيها واحدة وأضع الأخرى على منضدتى. أجلس فى مكانى المفضل. آخذ قدميها على حجرى. أنظر فى عينيها فتباغتنى بموضوع آخر:

- شفت اللى حصل للبت منال؟

أسال باهتمام أكثر هذه المرة، فأنا أعلم أن "منال" أصبحت صديقة نسمة المقربة فى الفترة الأخيرة منذ أن تركت نسمة الجامعة فى إجازة لتعمل فى المشروع. ومنال هذه فتاة عديمة الخبرة بالحياة. درست فى الخارج معظم الوقت، وأبوها كان دبلوماسياً إلى أن ترك الوظيفة وانتخب عضواً فى مجلس الشعب وعيّنها فى المشروع فتعرفت على نسمة. ولأنها وحيدة؛ فكانت نسمة تحضرها لتسهر معنا فى المطاعم والديسكوهات.

وحدث ذات مرة أن قالت لى نسمة و نحن فى الديسكو ومعنا منال:

- سامح، قوم رقَّص منال.

والحقيقة أننى ارتبكت قليلاً عند سماعى الجملة، وكنت حائراً فى تفسيرها، هل هى الثقة الزائدة فى النفس عند نسمة تحاول أن تظهرها لصديقتها بأنها تستطيع أن تعيرها رَجُلها فى أى وقت ليرقص معها دون أن تخشى مغبة ذلك؟ أم هى تجاريها فى الثقافة الأوروبية وتحاول أن تثبت لها أنها ليست أقل منها "ليبرالية" وتفتحاً؟ أو أن الرسالة كانت موجهة إلىَّ أنا، وأن نسمة تريد أن تقول لى إنها لم تحبنى بعد بالقدر الذى يشعرها بالغيرة عليّ؟ خصوصاً أننا كنا لا نزال فى بدايات العلاقة وكانت لا تزال تقاوم الشعور بالحب.

أو أن نسمة تختبرنى من الأساس؟

أو أن هذا كله أو بعضه يمكن أن ينضم معا؟

الحق أننى لم أكن أرغب فى الرقص مع منال بنفس القدر ـ تقريباً ـ الذى كنت أرغب فيه بالرقص معها، فقد كنت أخشى أن أندمج معها لأنها فتاة جذابة ووحيدة فى نفس الوقت، وكنت سأشعر نحوها بالإثارة لو رقصت معها.

نحن فى "الخن".

ـ قدمت استقالتها.

ـ ورايحه فين؟

تشيح بيدها على الطريقة الشعبية بحركة تدل على فقدان الاهتمام:

ـ يا خويا مش عايزه تقول.

لكنها تستطرد فى إصرار:

ـ بس وحياتك أنا أول واحدة حتعرف.

ظلت تتكلم ونحن جالسان فى الخن، والتليفزيون مفتوح على قناة الشخلعة كما نسميها حيث المذيعة ذات العيون الجائعة، قلت لها مقاطعاً حديثها عن المذيعة:

ـ تعالى.

قفزت من مكانها. ارتمت فى حضنى. رأسها على صدرى وقدماها على الجانب الآخر من الكنبة. شعرها الكستنائى فى أنفى وفى فمى. وطاقة حب تسرى، كأننا أبداً لم نفترق، أو كأننا لأول مرة نلتقى.

تنصهر. تنام على الكنبة. تعطينى عذاباتها. تتساقط دموعها. من بين الدموع تقول لى إننى جرحتها. قسوت عليها، ولهذا السبب تركتنى، تعتذر فى صدرى وهى تمسك بقميصى:

ـ ما تنْساش عليَّ تانى.

المكافأة التى أعطيتها لنسمة فى تلك الليلة هى معاملتها بطريقة لم تعتدها منى من قبل. جربت أن آمرها بدلاً من أن أتركها لتصنع الحب؛ كما تعودت دائماً؛ بالطريقة التى تراها، وكما كانت تطلب منى بلهجة شبه آمرة. لم أكن أعرف حقيقة أن ذلك كان سيسعدها إلى تلك الدرجة. كانت تنتظر منى دائما أن أفعل ما تحبه هى، وكنت ألبى دائماً طلباتها عشقاً فيها، ورغبة فى نيل رضاها، وخوفاً من فقدانها. لكنى اليوم لا أدرى لماذا لا أعبأ، هل لأنها هى التى طلبتنى، وأظهرت لى حالة الخنوع غير المعتادة هذه؟

أجتاحها بقوة. وأفعل كل ما أريد. فى منتصف النشوة ومع اقترابنا من الخلاص تبدأ فى البكاء وهى تشهق:

- عمرك ما كلمتنى بالطريقه دى قبل كده، ولا قلتلى الكلام ده أبداً.

لم أقل لها أننى أنا نفسى لم أحس معها – أبداً – بهذا الإحساس من قبل، ولم أكن أعلم بأنى سأحسه ، و لم أخطط له.

هى أرضي وأنا أعلن امتلاكها.

وهى لا تستطيع مغادرة الكنبة. ساق ممددة وأخرى فوق المسند.

آتى لها بغطاء خفيف، أغطيها، أحتضنها، أقبل وجنتيها وجبهتها، وعندما أطمئن إلى نومها أقوم، أطفىء النور وأغلق التليفزيون.

و أنا أغادر الخن إلى غرفة النوم ومنها الى الصالة خطر لى خاطر أضاع تأثير البيرة ولذة ممارسة الحب معاً.

- هل هذه كانت طريقته؟

- هل لهذا السبب قضت معه كل تلك السنوات غير المبررة؟

- ما الذى كان يعجبها فيه؟

فتحت باب الشقة وخرجت، جذبته ورائى بقوة.

٣

كانت المرسيدس البيضاء تجرى على الأسفلت بمنتهى الهدوء، فلم أحس بأى تعب أو أسمع أى صوت فى الخارج، خصوصاً أن النوافذ كانت مغلقة، كنت متعباً من الليلة السابقة وأحتاج إلى الحصول على الراحة فاستسلمت لبعض النعاس.

وكانت نسمة إلى جانبى فى المقعد الخلفى للسيارة، رأسها على صدرى، ويدى اليسرى ألفها حولها أمنع عنها بعض أثر التكييف. ومنال تقود السيارة بشىء من الرعونة لا أدرى ما السبب، وإلى يمينها صديقها الفرنسى ذلك الذى تعرفتُ عليه فى حمام السباحة فى فندق "كتراكت" الهرم.

يومها ذهبت متأخراً بعض الشىء وعندما أبصرتنى نسمة من بعيد طلبتنى على الموبايل:

- إلحقنى.

- مالك؟

- نسيت اسمه، ومش عارفة ح اعرفكوا إزاى على بعض.

بمناوشة خفيفة من جانبى سألتها:

- آخر مرة سمعتى اسمه إمتى؟

- من يومين أول ما جالنا فى الشغل.

- طب ما تسألى منال؟

- هى كمان ناسياه.

ضحكت متخيلاً كيف يمكن أن تدعو امرأتان زميلاً جديداً فى العمل إلى حمام سباحة ثم تنسيان اسمه.

عندما اقتربت منهم اتجهت إليه على الفور مصافحاً ذاكراً اسمى فصافحنى وقدم نفسه. ولن أنسى ما حييت معنى تلك النظرة التى رأيتها فى عينى نسمة. شىء أشبه بالعرفان. نظرة فيها التماعة مضنية، فيها التوهج الذى صبغ أعلى مراحل علاقتنا، وفيها أجمل ما كنت أطلبه منها.

و بالرغم من مستوى اللباقة الاجتماعية الاستثنائى لنسمة ، إلا أننى كنت لا أدرى كيف كانت تتعطل هذه الملكة أحياناً إلى الحد الذى تطلب فيه العون منى، مع أننى فى كثير من الأحيان كنت أقف مشدوهاً من قدرتها على الخروج من بعض المواقف الاجتماعية المحرجة جداً بسلاسة منقطعة النظير، للدرجة التى كنت أسأل نفسى وأنا وحدى:

ـ كيف أخرجتْ الموقف هكذا؟

فى الحقيقة كنت أتمتع بعدم قدرة نسمة على فعل شىء بنفس الدرجة التى أتمتع فيها بقدرتها على فعل شىء آخر. كنت أتمتع برؤيتها فى كل المواقف.

كل المواقف؟

يستثنى منها مواقف الانفعال التى كانت تتسبب دائماً فى إصابتى بالتوتر. فعندما كانت تفقد السيطرة على أعصابها يكفهر وجهها وتتغير نبرة صوتها بسرعة أو يزداد انفلات أعصابها فتصيح وتصرخ وأرى كمّاً من التعاسة على وجهها أعجز عن تفسيره، ذلك لأن غالبية المواقف ــ من وجهة نظرى ـ كانت أبسط كثيراً من حجم الانفعال حتى لتبدو الصلة مقطوعة أحياناً بين الموقف ونوع الانفعال، ولطالما استغرقنى البحث عن هذه الحلقة المفقودة.

وعندما كانت نسمة تفعل ذلك كانت تحاصرنى التعاسة أنا أيضاً. كنت أفقد الشعور بوجودى، وكان يحاصرنى الإحساس بأنى عبء عليها، وبأننى لا أستطيع أن أقدم لها يد العون فى حياتها الشائكة. كنت ــ فى تلك اللحظات ــ أشعر بأننى لم أحقق لحياه نسمة أية إضافة، وكان كل ما يمكن أن أفعله هو الصمت التام إلى أن تهدأ ، ثم أحدثها فى موضوع مختلف أنتقيه بحرص وكأن شيئاً لم يكن. كنت قد توقفت عن اتهامها بالعصبية لأننا قتلنا هذا الموضوع بحثاً وسلمتُ بوجهة نظرها فيه وهى أنها فقط انفعالية.

كيوم تركت أهلها وتركت الغردقة وأتت تحتفل بعيد ميلادها معى، سهرنا فى "المهندسين" ثم رجعنا إلى بيتها، وما أن دخلنا البيت وذهبت لتشغل التليفزيون حتى اكتشفت أن "الدِش" لا يعمل، وكان الاحتمال الأكبر هو أن "الكابل" قد قطع من فوق السطوح، ليس سبب العطل هو الذى أثارها، بل مجرد حدوثه، فقد بدأت ثورة وصياحاً لم يتيحا عودة الصفو أبدا لتلك الليلة، وأظهرت من صنوف التعاسة ما لم أستطع أن أفهمه، قالت إنها وحيدة وستظل وحيدة وليس لها رجل

تستطيع الاعتماد عليه، أحسست بتلميح غير مريح، فلم يكن لى وجود قانونى فى حياتها حتى أستطيع التصرف فى مثل هذه الأمور، وانتهى الأمر بخروجى محسوراً ومندهشاً بل وخائب الأمل، كيف أن وجودى لم يكن له معنى لدرجة أن مجرد عطل بسيط قد ألغاه.

كانت نسمة تمتلك قدرة لغوية عجيبة على وصف المشاعر والحالات، وعلى قلب الحقائق عند اللزوم، وكنت فى كل مرة نتشاحن فيها أسأل نفسى كيف لم أستطع إثبات وجهة نظرى أمامها، وبعد البحث عرفت أننى كنت نادراً ما آخذ الفرصة لعرض وجهة النظر. فهى كانت إما أن تقاطع حديثى، أو أن تشيح بوجهها أو بيدها. كما أن نبراتها كان يفوح منها طعم السخرية الشديدة. مما كان يثير حفيظتى فأبتعد فى غير رغبة منى أن يتطور النقاش. أما إذا استطعت- فى مرات نادرة - حصارها بالمنطق، وانتظرت منها الاعتراف بالخطأ، فكنت دائما أسمع منها كلمة واحدة لا تتغير:

Whatever

تقصد أن تقول:

- مهما يكن من أمر فالحق معى.

- ولو.

وفى لحظات الصفاء كنت أحاول الثأر منها بتقليدها بطريقة كوميدية، حتى أستطيع أن أمرر رأيى بلا مشاكل، وكانت هى تستمتع بذلك.

أذكر مرة ونحن جالسان إلى الكنبة أن أفلتت منى هذه الجملة:

- أحب فيك كل نقائص المرأة.

فاعتدلت فى رقدتها ومالت علىّ تضربنى فى صدرى وهى تصيح وتشتم وأنا أضحك، وكنت أعلم بأنها سعيدة جداً، بدليل أننى عندما استطعت أن أصل إلى شفتيها توقفت عن الشتائم فوراً.

نحن فى السيارة.

عيناى وعيناها تضحكان عندما نلاحظ منال وصديقها يختلسان النظر إلينا عبر المرآة، فى الواقع كانت منال تختلس النظر بسهولة أكثر نظراً لموقعها وراء المرآة، أما ديفيد فكان ينظر فقط إلى يساره كأنه ينظر إلى منال، فيستطيع أن يرانا - بالكاد- بطرف عينه.

لم ينشأ بينهما حوار عميق فى ذلك اليوم، ولا بعدها، وانتهى الأمر بينهما كما علمت بعد ذلك بالفتور، وأن منال البائسة أعجبها الفتى، وكانت تتمنى إقامة علاقة معه بصرف النظر عن

مصيرها، وحتى لو كانت علاقة قصيرة، إلا أن الخواجة فر هارباً. أخبرها أنه مرتبط فى بلده، مع أنه كان قد أخبرنى بعكس ذلك فى حمام السباحة.

هذا الخبر أثارعجبى ولم أدر ما خطب منال، لأنى أراها مقبولة وذوقها رفيع، فكيف لا تستطيع الحصول على رجل مناسب.

لم يبق لهما إذن غير استراق النظر إلينا بين الحين والآخر، ونحن جالسان تحت الشمسية فى أحد نهارات أكتوبر، ورمال الشاطىء الصفراء تزيد من وهج الموقف.

كنت أدلك ظهرنسمة بكريم واقٍ من الشمس، بينما يتجه بصرى إلى ميناء السويس الواقع إلى اليسار. بدا لى رمادياً كئيباً وطافت بذهنى ذكريات غير مريحة عندما كنت أعمل فى نفس الفندق منذ عدة سنوات وتركته بعد ثلاثة شهور فقط من بدء عملى فيه. إحدى الذكريات الجميلة القليلة فى هذا الفندق كانت عندما حضرت نسمة ذات يوم إلى الفندق مع أبيها المستشارلقضاء يوم على الشاطىء. كلمتنى فأعطيتها أفضل غرفة بالطبع، لكنها لم تكن من نصيبى بعد فى ذلك الوقت.

عضلات ظهرها تتوتر وأنا أدلكها، ثم ترتخى، والبيرة فى الظهيرة وتحت أشعة شمس أكتوبر تفعل فعلها.

وجدنا نفسينا فجأة غاطسين فى مياه دافئة وكثيفة جداً، إلى حد أن تحركنا فيها كان يحدث صوتاً جميلاً كجندول مترقرق.

وثمة ناس بعيدون. رجل وامرأة، ورجل آخر وامرأة، و نسمة تطوقنى بيديها من فوق كتفى، وراحة يدها تصل إلى ظهرى، تعبث معى بأظافرها، وساقاها تلتفان حول خصرى. أرفعها بسهولة بكلتا يدىّ. أداعب ردفيها بينما نتكلم، وأصابعى تتسلل تحت "المايوه" قليلاً دون أن تعلق.

وهى تشير إلى صديقينا اللذين يتحدثان من بعيد، أديرها لكى أرى أنا أيضا، أقربها أكثر، أحتضنها وأضمها إلىّ بينما تتعلق بى، وأحس بجسدها أدفأ من الماء الذى يحتويه.

أذكر ما حدث بعد ذلك بصعوبة، حيث نظرتُ إلى عينيها، إلى شفتيها، ثم تصلب الموقف على ما هو عليه. كنت أستغرب الماء الذى لا يفتأ يسخن، والطنين الذى ينسحب من حولنا كأن الكون يغادر. رأيت الشاطىء كله يتلاشى حتى اختفى عن الأنظار كما اختفى الذين من حولنا. الفندق تاه فى السماء والمراكب البعيدة استدارت. اختفت البلاد الأخرى والكائنات وحل صمت مهيب. جفت البقاع وبقيت بقعة واحدة تلك التى كنت أنا وهى داخلها. ثم اختفينا نحن أيضاً. لم أرنى و لم أرها.

حين عدنا وجدنا الناس يظهرون أشباحاً من بعيد، وها هما صديقانا يعودان، وشيئاً فشيئاً عادت لنا الدنيا كما نعرفها.

نظرنا إلى بعضنا البعض، وابتسامة واهنة – لكنها أكثر حميمية- ارتسمت على شفاه لم تبتسم كثيراً فى الفترة الاخيرة.

٤

لا أدرى على وجه اليقين لماذا تركتنى "نسمة مظهر".كما أننى أيضا لم أستطع أن أفسر لنفسى لماذا كنت – معها - فظاً جافاً فى آخر شهرين كانا لنا معاً.

فى الخن يثير لقاؤنا البكاء على ما لم نستطع المحافظة عليه، تنزعج نسمة وتخاف أن يكون هذا هو الرجوع الذى يخاف كلانا منه، تبعد نفسها بعيداً عن صدرى:

- بلاش كده يا سامح، أرجوك.

كان فى صوتها رنة تأثر، وفيه كراهيه للبكاء. بدت لى لا تحتمل المزيد.

خفت أن تهرب منى من جديد فتفلت اللحظة، ضممتها إلى ثانية وأنا أسمعها ضحكتى، ثم أبعدتها لكى ترى وجهى وهو يضحك.

أحاطت رقبتى بذراعها، ودفنت وجهها فى صدرى، والتصقت فلم أر وجهها لكن شعرت بها تهتز بداخلى، فلما أبعدتها وجدت وجهها غارقاً فى الدموع.

٥

كانت الطائرة الثانية تقترب تدريجياً من برج التجارة العالمى بينما كنت أحادث نسمة فى الموبايل، ثم حدثنى أخى بعدها من وحدته العسكرية طالباً منى أن أفتح قناة ال"CNN" فوراً لأرى مايراه هو من مكانه، فطلبت نسمة ثانية قبل أن تظهر الطائرة الثانية فى فضاء البرجين، وظللت معها على التليفون. كنت في منزلي بالإسكندرية أرقب المشهد ولكن لا استطيع تصديقه.

كنت أنقل إليها تلك الأحداث لحظة بلحظة بينما كانت في ورشة عمل خارج القاهرة.

و كان الذهول مسيطراً علينا، حيث كنت أحس حتى وأنا ناظر إلى التليفزيون بأني ربما أشاهد فيلماً روائياً، لا يمكن أن يكون هذا حقيقة، فإما أنه فيلم روائى، أو أنه حلم، أو أننى سكران حتى الثمالة.

و حتى فى بار "الشيخ على" حيث سهرت تلك الليلة لم يكن أحد مصدقاً لما رآه.

بعد يومين من حادث الطائرات، أنا موجود معها في المطبخ، جالساً إلى الكرسي البلاستيك الأبيض وهي تعد لي أكلة ساخنة وخفيفة في نفس الوقت.

كنت قد رجعت من عملي إليها، خلعت ملابسى وذهبت إلى الدش الساخن، خرجت وارتديت بنطلوني الأزرق الفضفاض و"سويت شيرت" لونه أزرق كالح كنت قد اشتريته من "دبى" أثناء رحلة عمل قبل أعوام، وظل هو المفضل لدي.

أعدت نسمة البطاطس "البيوريه" على المائدة، ثم وضعت لى السبانخ المسلوقة (كما فهمت من شرحها) وأضافت إلى طبقى ضعف كمية "المشروم" التي وضعتها لنفسها.

- **بس حرام اللى العيال دول عملوه في أمريكا.**

كنت لا أزال ثائراً من مشاهد "انتفاضة الحجارة" فجاءها ردى هادئاً ولكنه صارم

- **طب ومش حرام عليهم اللى بيعملوه في فلسطين؟**
- **أيوه، بس يقوموا يعملوا كده؟ ذنبهم إيه الناس الأبرياء دول؟ لو تشوف مناظرهم بعد الضرب .. اللي بتبكى، واللى واقفه مذهوله.**
- **طب وذنب الفلسطينيين إيه برضه؟ على الأقل دول بيدافعوا عن وطنهم.**
- **ودول أبرياء.**
- **واللى بيدافعوا عن وطنهم كمان أبرياء، ولا لازم يعنى يكونوا ناس شكلهم نضيف علشان نبكى عليهم؟**

سكتت.

أكملت طبقي وأنا أشعر بالغيظ، ولم يكن السؤال المعتمل فى نفسى هو: ما سر هذا التعاطف مع الأمريكان، فأنا أيضاً لديّ نفس التعاطف مع الأبرياء ليس فى أمريكا فقط بل فى كل مكان فى العالم، لكن السؤال الحائر الصامت بداخلي كان هو: ما سر هذا اللا تعاطف مع الفلسطينيين؟

٦

عندما جاء الفجر كنت واقفاً محتضناً نسمة فى غرفة نومها البيضاء، سريرها الأبيض ورائى وهى واقفة معطية ظهرها للباب.

بكيتُ على كتفها الأيمن وكنت أرتجف، وكانت يداها تربت على ظهرى. الآن حان الفراق؟

يدى اليمنى تحيط بكتفيها، ويدى اليسرى على ظهرها تلصقها بى.

كنت أفكر كيف يمكن أن يولد الانهزام تحت وطأة شروط اجتماعية كل هذا الدمع، ثم أجبت نفسى بأن الدمع متولد من القهر، وبالتيقن من حتمية الفراق فى نهاية الأمر.

من الصعب أن نتزوج لأنى لا أستطيع أن أفى بالمتطلب المادى الكبير لأسرتها ذات الأبعاد المتشابكة والعلاقات الواسعة، كما أنها لا تستطيع أن تتزوجنى لأنه من الصعوبة بمكان أن تنجب لى ولو طفل واحد.

هناك رفض اجتماعى متبادل، وأنا لا أستطيع على الإطلاق أن أترك نسمة، ومن المستحيل أن أتمكن من الاقتراب منها أكثر من ذلك، ومن المستحيل أيضاً الابتعاد عنها، ومن الإرهاق البقاء على ما نحن فيه. كما أنه من العبث محاولة الرجوع بالزمن إلى الوراء وكأننى لم أعرفها بعد.

أين أنا؟

وهل هذه كل المشكلة؟

لا.

قالت لى نسمة ونحن نتبادل الحب فى تلك الليلة القمرية من شهر مايو:

ـ آسفة يا حبيبى لأنى لن أستطيع أن أنجب لك أطفالاً.

ـ مش عايز.

ـ ما ينفعش.

ـ ليه؟

ـ حا تبقى قليل الأدب.

أدركت ما ترمى إليه، لكنى لم أجادل ليقينى أن الجدال لن يجدى نفعاً. فهذا الذى تفوهتْ به ليس رأياً، إنه مخاوف.

أعطيتها مزيداً من الحب، وبعدها كنا نفكر بصوت عال كيف يمكن أن يُمارس الحب بطريقة أجمل من التى صنعناه بها.

وعدتها بأن تكون المرة الأخيرة التى أبكى فيها أمامها، و لم أكن صادقاً، مثلما لم تكن صادقة عندما أعطتنى نفس الوعد من قبل.

ونحن نتجه للباب سألتنى:

ـ متأكد تقدر تسافر دلوقتى؟

فتحت الباب ونزلت بضعة سلالم، ثم استدرت مع الدوران، وجدتها تطل برأسها وعلى وجهها ابتسامة وهى تشير لى بيدها:

ـ بايْ.

فى ذلك الصباح الربيعى من شهر مايو لم أتوقف فى الطريق إلى الإسكندرية لشرب القهوة أو للإفطار، كانت البيرة لا تزال تملأ الدماغ وكان كل همى أن أصل إلى الاسكندرية قبل أن تحل بى الرغبة فى النوم.

فى المساء أخذت دشاً فاتراً، ونزلت أتنفس هواء البحر، لم يكن المصطافون قد حلوا بعد، وكانت الإسكندرية لا تزال – بعد – لسكانها.

وقفت على رصيف الكورنيش أنظر إلى المكان الذى كان يوجد به كازينو "بترو" القديم، ومن خلفه طابية سيدى بشر، الآن تتحدى تلك العمارات الرمادية الكئيبة كل مفاهيم البراءه والبكاره وأحلام الأيام الخوالى، وأنا أجلس إلى السورالمواجه لفندق "المحروسة" تطوف بى ذكريات وأطياف عندما كانت نسمة معى هنا نأكل إفطارنا على الكورنيش، فأحاول أن أميز الخط الفاصل ما بين الماضى والحاضر والمستقبل فلا أستطيع، بل إننى أحياناً ما أكون غير واثق فى أية مرحلة أنا.

محاولاً التخلص من هذه التهاويم عبرت طريق الكورنيش سائراً فى شارع الإقبال حتى وصلت الى البيت، أخذت السيارة وعدت ثانية إلى الكورنيش حتى وصلت إلى محطة الرمل، دلفت يساراً قبل موقف السيارات فى ميدان سعد زغلول ، ثم يميناً، ثم انعطفت فى عدة شوارع جانبية حتى وصلت الى بار "الشيخ على".

عندما دخلت البار وجدت كرسىً المفضل خالياً، ذلك الكرسى الذى جلست عليه من قبل عندما كانت نسمة معى، وكانت تلبس الجاكت الشمواه البنى الذى اشتريناه من المحل الواقع على الناصية بين شارعى سعد زغلول والنبى دانيال.

لا أتذكر فيما كنت أفكر فى تلك الليلة بالذات، لكنى كثيراً ما كنت أذهب للبار لمجرد تمرير الوقت، أو للتحديق فى الفراغ، كى أحول بينى وبين ساعات الليل الأولى. حتى أصبح هذا السلوك شبه يومى منذ أن افترقت ونسمة.

حانت منى التفاتة إلى الساعة الخشبية المعلقة على الحائط فوجدتها تشير إلى الخامسة، ورأيتهم يرفعون الكراسى ويضعونها فوق المناضد، ويبدءون فى مسح الأرضية. دفعت الحساب وخرجت.

فى البيت ألقيت بجسدى على الفراش، أشعلت سيجارة وغفوت، فوقعت السيجارة على الكنبة التى عن يمينى.

فى السادسة أيقظنى دخان خانق، فرأيت جمر النار ممسكاً بالملابس، حاولت إضاءة الأباجورة فوق مسند الكنبة لكنها لم تعمل، قمت محاولاً إضاءة نور الحجرة إلا أنه لم يعمل أيضاً فتأكدت من حدوث قفلة فى التيار بسبب احتراق سلك الأباجورة. عندما بدأت فى نفض الملابس المشتعلة وجدت الجمر يتطاير أكثر، فتركتها وذهبت إلى الحمام وملأت كفىّ بالماء وصببته عدة مرات على البقع المشتعلة حتى انطفات كلها فنمت.

استيقظت على دخان آخر فى العاشرة كان أقوى هذه المرة، لأنى لما فتحت عينى لم أستطع أن أرى أى شىء، فقمت فتحت الشباك على مصراعيه لأرى الجمرات مشتعلة فى كل ملابسى المبعثرة على الكنبة، فى ملابس السفر وملابس العمل، ووجدت المسند الخشبى للكنبة القديمة قد احترق وتآكل، والوسائد القطنية للكنبة الكبيرة برتقالية اللون كلها تحترق، ولم يكن أمامى سوى أن ألقى بكل شىء فى "البانيو" وأفتح عليه المياه، حتى حصيرة الأرضية البلاستيك قذفتُ بها أيضاً تحت المياه، طالت النيران أيضاً شنطة السفر لكنها لم تأت عليها، مجرد لون أسود على أحد جوانبها، مازلت أحتفظ بها حتى اليوم وأستعملها عندما أسافر إلى الإسكندرية، وأضعها فى نفس المكان.

فتحت نوافذ الشقة وكان الدخان قد عبأ البيت كله، وقفت فى البلكونة وقد أطار المشهد كل أثر للخدر. كنت مندهشا كيف كان الموت قريباً ووشيكاً وسهلاً هكذا. كلمت نسمة فى الحادية عشرة تماماً بعد أن اطمأنيت إلى سيطرتى على الموقف.

جاء صوتها إلىَّ حانياً كأنها أخذتنى فى صدرها وهدهدت رأسى.

- فداك، أهم حاجه سلامتك.

- فداك كل شىء.

لم تقل يا حبيبى.

أرادتْ – بكل ما أوتيت من قوة – أن تمرر اللحظة وأن تنقذ حياتنا معاً.

كانت تعلم أنها لو قالتها لكنت فى بيتها بعد ساعات.

أردتُ أن آخذ مزيداً من الحنان فسألتها:

- كنتى حتبكى عليّ؟

- إنت مجنون.

قالتها باندفاع وبكت.

٧

جاءنى صوته على المحمول يدعونى لحفل زفافه.

فى الميعاد لبيت الدعوة، استقليت سيارتى وأخذت المحور ذاهباً الى ذلك الفندق ذى الخمسة نجوم الذى يقع فى أول الطريق الصحراوى.

وأنا دائماً ما أنسى أسماء الكثير من الأشياء كأسماء الشوارع والفنادق، كما أنسى الاتجاهات السليمة للطرق، فلا أعرف –مثلاً- أى طريق أسلكه لكى أصل من مكان إلى آخر، أستطيع بالكاد أن أتخيل شارعين فقط أو ثلاثة قادمين، وعندما أنتهى منهم أستطيع أن أتخيل مثيلهم وهكذا.

ركنت السيارة وأخذت طريقى إلى قاعة الفرح، قابلت هناك أصدقاء عديدين ممن شملتهم الدعوة، بذلت مجهوداً كبيراً لأبدو فى قمة السعادة.

هذا هو الذى أحبته نسمة من قبل، فكيف تشعر هى الآن خاصة ونحن مفترقان؟ ثم بم يشعر هو الآن ولماذا دعانى؟ هل يكرهنى؟ أم ترى أن الأمر لا يعنيه؟ لا أنسى أبداً أن هذه هى الزيجة الثالثة له، فهل يعبأ بالأمر؟ هل أحب نسمة؟ ولماذا – إذن- طلقها؟ وددت دائماً أن أعرف إجابة السؤال.

وددت أن أعرف أيضاً ما إذا كان "صادق" قد أغواها قبل زواجه بها وكان السبب فى طلاقها من "مراد".

ذكرت لى نسمة مرة أنه كما أن باستطاعة النساء اغراء الرجال، فإن الرجال أيضاً باستطاعتهم إغواء النساء. ذكرتُ لها أنه فى تلك الحالة فإن النساء لابد وأن يكن فى حالة رغبة بالفعل بعكس الحال مع الرجال، لكن نسمة هزت رأسها بالنفى كأنها تفهم ما لا أفهمه، رجحت وقتها أنها كانت تقصد نفسها، أى أن "صادق" هو الذى أغواها فذهبت إلى الحب من غير قصد منها، يومها ركزت على مخارج الألفاظ:

- لأ، الرجل ممكن يغويها.

قالتها وحرف الغين يملأ سقف الحلق، وكانت قريبة جداً من اتهامه.

كانت لنسمة طريقتها فى نطق حرف الغين، فيجىء ممتلئاً من سقف الحلق وله صوت رطب ملحوظ.

يظهر صادق مع عروسه الصغيرة، وأنضم إلى طابور المهنئين. عندما جاء الدورعليّ قلت له بعض الكلمات المقتضبة حاولت من خلالها إظهار الثناء أو المديح، إلا أننى لم أجد على ملامحه فرحاً يومىء بأثر كلماتى، راجعت نفسى وقتها، أيقنت أنه لابد وأن يكون قد أخذ كلامى على محمل آخر كالسخرية مثلاً.

كنت قد قلت له إنه يبدو أصغر كثيراً عن ذى قبل بعدما فقد الكثير من الوزن الزائد بسبب الريجيم الذى اتبعه مؤخراً، كانت نيَّتى هى المديح الخالص، لكن يبدو أنه قد أخذها على محمل الإشارة إلى الفرق الواضح فى السن بينه وبين العروس، وربما أننى وبسبب توترى لم أحسن اختيار الكلمات، فلم يكن من اللائق ذكر موضوع السن.

العروس أمها فرنسية مثل أمه، وقد انتقاها من المركز الثقافى الذى تعمل به، وكانت تعمل به أمه من قبل.

أبتسم وأنا أحاول أن أفسر ما حدث:

هل أغواها هى أيضاً؟

٨

دخلت الحمام لآخذ الدُش، كانت هناك بضع جرائد ملقاة على الأرض منذ الصباح.. تقرأ نسمة الجرائد في الحمام مثلما يفعل الرجال، ولأنني من عشاق "الأهرام" حيث طبيعته المتزنه أبدأ بقراءته ثم أنتقل إلى جريدة "الأخبار" وأختتم الجولة بالجرائد الساخنه التى أرتاب فيها بطبيعتى.

أخذت الجرائد بعد الدش وذهبت إلى "الخن"، كان هناك خبر عن تواصل الانتفاضة، ولم تكن نسمة من

هواة الدخول في تفاصيل السياسة، فكانت تكتفى بالعناوين ثم تضع نظرياتها الخاصة.

بدخولها الي "الخن" تركت الجريدة جانباً، وجهزت نفسى لما سوف تقوله خاصة أنها كانت عائدة من رحلة عمل بأسوان.

- أسكت علي اللي حصلى النهارده.

قلت مبتسماً:

- خير.

- واحنا في الطيارة اتفتح موضوع ١١ سبتمبر، قلت لهم إن من مات في البرجين هم ناس مساكين وهذا ليس تحضراً أن تفجر أناساً ابرياء.

قلت لها متصنعاً الهدوء بينما فى الواقع لا أطيق صبراً كى أسمع ماذا حدث لها:

- وبعدين؟

- نزلوا عليَّ فى نفس واحد، ست انفار بيهاجموا وليه مسكينة زيى، واحد قال لي إني "مش حاسه بالدنيا"، والثاني قال أحسن علشان يدوقوا من الكاس اللي احنا شاربينه، والثالث قال لي نفس كلامك ولكنه كان تقريباً بيصرخ.

لقد انتقم لى هؤلاء الزملاء الأعزاء من نسمة، فمنذ أسابيع تحاشيت الدخول معها فى جدل عقيم حول نفس الموضوع، ثم ما معنى أن تجادل امرأة فتكسب المناقشة وتخسر ليلتك؟

والآن فلأكون انتهازياً وأقف معها فى موقفها وأكسب الليلة على أساس أن رأيها لن يفيد القضية على أى حال ثم أن الزملاء قد قالوا الحق وانتهى الأمر.

قلت لها مغيراً الموضوع:

- يا حبيبتى دول ناس "ولاد وسخه"، سيبك منهم وتعالي فى حضنى أحسن.

ضحكت واقتربت منى، دخلت في حضنى، وضعت وجهها على رقبتى، فكرت أنها ستقبّلني لكنها عضّتنى عضة خفيفة.

٩

تنام على السور الفاصل ما بين الممشى ومياه البحر فى الطريق المؤدى إلى الفنار، رأسها على رجلى، تبدو "المنتزه" شيئاً آخر غير ما عهدته. حيث تعطى شمس نوفمبر -خصوصاً فى فترة ما بعد الظهيرة- إحساساً سحرياً بواقع آخر غير ما نعرفه، كأننا نعيش لحظة مسحورة وقد حولناها الى واقع، بينما توارى الواقع وكأنه الخيال.

أمسح بيدى على فمها المرسوم. أتحسس أنفها الصغير وشعرها الكستنائى الخفيف، ورأسها الجميل يحبس الدم عن ساقى.

الهواء يقذف بالأمواج. ترتطم بالصخر القريب. يغشى الرذاذ المالح الوجه والملابس. أصبح طعم شفتيها مالحاً بعض الشىء عندما كنت أمرر إصبعى عليهما ثم أرفعه وأضعه فى فمى.

الشىء الذى كان -دائماً- يطردنى من النشوة إلى حالة أخرى فيها من السوداوية الكثير جاءنى:

- إذا كانت هذه هى السعادة كما نتصورها، فما اسم ذلك الذى كان بينها وبينه؟

يخرج لى وجه "صادق" من الزجاجة يحاول قتلى، يمسك بخنجر غامض، نصله ملتاع من العطش ويتقدم نحوى.

لا أعلم من القاتل ومن القتيل. المفروض أننى القاتل وهو القتيل، إذن فمالى أرى الخنجر ملوثاً بالدم؟ وما هذه الدماء اللزجة التى أراها على صدرى؟

تسألنى وعيناها مغلقتان:

- مالك؟

كيف قرأت نسمة ما يدور بداخلى؟ كيف أحست بالمسرح الدائر؟

- ماليش.

- لأ.. ليك!

١٠

كنت فى الفندق بالغردقة فى مأمورية عمل حينما جاءنى جرسها المميز على الموبايل.

- تعال خد حاجتك، لن أسمح بأن تبقى عندى بعد الآن.

فى اليوم التالى ذهبت إليها آخذ حقيبة ملابسى، جلسنا نضحك ونتلاطف، وكان من الواضح أننا نحاول أن نمرر الأمر. لكنها حرصت على أن تظل عيناها بعيدتين عن مرمي عينىّ، وفى اللحظة التي استطعت أن أشد عينيها بنظرة توارت، وحولت نظرها إلى الأرض كأنها حركة عفوية لكنها لم تكن، لأن قسمات الوجه كانت قد انكمشت فجأة وتقلصت بألم مسيطر عليه شاهدته على وجهها، خيل إليَّ أنها مذبوحة تنزف.

كنت قد حملت حقيبتها الخضراء الكبيرة من بيتى وذهبت إليها فى ذلك اليوم الخريفى المعتم. كلمتنى كثيراً من قبل طالبة منى أن أحضر لآخذ أشيائى من بيتها. أشيائى أو أغراضى هذه لم تكن

سوى بيجامة صيفية زرقاء، وأخرى صوف شتوية، وغيار داخلى أبيض، وفرشة أسنانى وأدوات الحلاقة، وبذلتين للعمل.

هذه الأشياء عندما أخذتها إلى شقتى قبعت فى الكيس البلاستيك لمدة أشهر لم أقو خلالها على فتح الكيس وإخراج الأشياء، كانت رائحة دولاب نسمة تفوح منها كلما أردت إخراج شىء، وكنت لا أريد أن أفقد تلك الرائحة، ولا أستطيع أن أشمها فى نفس الوقت.

- حسنيه ماتت.

لم أرد للحظات.

- إمتى؟

- من شهرين..مسكينه، آخر أيامها وديناها قصر العينى ووصينا عليها أحسن دكاتره، لكن السر الإلهى طلع. الورم كان منتشر والإشعاع ماجابش نتيجه.

تستريح برهة ثم تكمل:

- حسنيه عاشت معانا أربعين سنه، وهى اللي ربتنى وخَدت بالها منى لما كانت أمى وأبويا فى فرنسا. ولحد ما ماتت.. أحسن حمام محشى في مصر كانت هى اللى بتعمله.

لم يكن الموقف يحتاج مزيداً من الألم، خصوصاً وأن نسمة كانت ستبدأ في البكاء بعد جملتين أو ثلاثة على الأكثر وسيتعقد الموقف.

- الله يرحمها.

كنت أحس، بالرغم من تأثرى بحديث حسنية الذى آلمنى كثيراً، أن الحقيبة الخضراء التى أتيت بها من منزلى هى ميت تأجل دفنه كثيراً، والآن سيُدفن وسيبدأ توقف الألم.

قلت لنفسى: فلنفترق كما شاء لنا الفراق يا نسمة، لكن لا اسمى سيتغير ولا اسمك، ولا شىء مما يعتمل فى الفؤاد.

أحسست أنه الوداع فحاولت تقبيلها بينما احتضنها بيدى اليمنى حيث تحمل اليسرى الكيس فابتعدتْ.

- أنا عرقانه عليك.

احتضنتها بقوة وأخذت ألثم رقبتها ووجنتها وشعرها ثم انصرفت بسرعة.

قالت لى ضاحكة وأنا أنزل على السلالم:

- حاسب تقع.

١١

لما افترقنا أنا ونسمة تطهّرنا.

الألم الناتج عن الفراق والإحساس بفقد كل منا للآخر كان هو الثمن الذى دفعناه من أجل الإحساس بسعادة أراها الآن وكأنها لم يكن من الممكن أن تكتمل.

كل الخلافات التي عشناها والمشاجرات فقدت موضوعها الأصيل ثم فقدت معناها، عندما أسترجع خلافى مع نسمة لا أستطيع أن أتذكر جوهره على وجه الدقة.

لا أذكر إلا تلك المكالمات المتباعدة منى ومنها والتى لم يكن الهدف منها نص الحوار.

عندما افترقنا كنت موقناً بأنه لا مهرب لى منها، لكنى أرجح أنها كانت تعتقد بأن الخلاص ممكن.

الآن أنا فرح للغاية استعذب حقيقة أنها لا تستطيع الفكاك، بين الحين والآخر تكلمنى وتبكى،

أعرض أن أجىء إليها، توافق، ثم وأنا على السلم أسمع رنة تليفونى المحمول، أرد فتقول لى:

ـ سامح عشان خاطرى بلاش نشوف بعض أحسن.

خائفة أن ترانى.

شىء جميل.

١٢

لما زارت "بكين" مع صديقتها المقربة سكندرية الأصل "أمل" حدثتنى بالتليفون، قالت لى بأن المكان لا يزال كما هو، نفس الأشخاص والوجوه.. قالت لى أيضاً أنها قابلت صديقاً قديماً لنا هناك. سألته عن حبيبته التى كان يرقص معها فيبهر المكان كله، أجابها بأنها تركته.

قبلته نسمة على الخدين مواسية.

تذكرت زماناً بعيداً كانت نسمة دائمة القول بأن حبيبته هي التى تحبه أكثر وأنه سوف يتركها حتماً لأنها أكبر منه بخمس سنوات، وعندما سألتها مرة: كيف تعرف منْ يحب منْ أكثر؟ قالت لى:

ـ من نظرات العينين.

ابتسمت على التليفون.

خطر لي أن أشاكسها بقولى أنها دائماً ما تخطىء فى تقديراتها وها هو المثال، ولكنى أحجمت عن ذلك مخافة تشابك المعانى، وكدت أن أقول لها أشياء على شاكلة: "النسوان كلهم كده"، ولكنى عدلت عن ذلك ولم أرغب فى إعادة فتح الملفات حتى ولو كان الموضوع من قبيل التهريج.

خطر لي خاطر فسألتها:

- من معك غير "أمل"؟

- بعض الأصدقاء وزوجاتهم.

تنفست الصعداء، وكنت واثقاً من أن نسمة تقول الحقيقة، كانت ثقتى بها دائماً مطلقة.

كنت أعلم أنها لم تكن أمينة تماماً مع "صادق"، لم تكن تخونه لكنها كانت تخفى عنه أشياء لا يحبها. الشىء الأساسى الذى أخفته عنه هو أنها كانت تضع موانع للحمل، حملت فى البداية مرة ثم سقط الحمل، بعدها اكتشفتْ أنه كان دائم الخيانة لها مع نساء من كل لون، خافت ووضعت اللولب.

قالت لى أيضاً بأنه كان يخون زوجته الأولى وأنه لم يتزوجها إلا بعد إلحاح من عائلته الذين ضاقوا بطول السنين التى قضاها معها دون زواج، وهذا هو نفس ماحدث مع نسمة عندما ضاقت أمه بطريقة الحياة التى كانا يعيشانها، فألحت عليه بسرعة إتمام الزواج.

كانت قد حدثتنى منذ زمن بعيد قبل أن تكون لى، وشكت لى منه، قالت إنه لا يستطيع اتخاذ القرار بالزواج ولا تدرى ماذا تفعل، ألقيت بالإجابة في وجهها:

- لا تفعلى شيئاً: فهو لن يتزوجك.

لم أستطع أن أقول لها أحبك، لم يكن من الممكن هذا وهو صديق قديم.

قالت لى "نسمة" إن "صادق" عندما تزوجها بعد أربع سنوات من ذلك الحديث خانها في الشهر الأول مع زميلة له فى المنظمة، احتاج أن يكتب تقريراً مطولاً بالإنجليزية وكانت تجيدها إجادة تامة، عاشت في انجلترا سنوات مع والدها، ورجعت إلى مصر وهى في العشرين، أحكم قبضته عليها، وعندما بدأ يحتاج مساعدتها فى العمل كان هذا أمراً سهلاً.

قلت لنسمة وإمارات الدهشه على وجهى:

- ولكن صادق يجيد الانجليزية!

قالت:

- كلام بس، كتابه لأ.

هذه الصديقة هى منال التى أصبحت نسمة زميلة لها بعد ذلك فى العمل، بينما صادق كان قد ترك المنظمة وعمل فى الخارج لسنوات قليلة، وعندما تقاربت المرأتان بحكم العمل، وبدأت "منال" تعتبر "نسمة" إحدى صديقاتها المقربات انكشف السر.

منال هذه التى ذهبنا بسيارتها إلى العين السخنة، وكان معها "David" ولم تستطع أن تحتفظ به، خاب أملها أكثر بعد ذلك عندما أحبت مدرب "الإيروبكس" فى النادى الذى تذهب اليه و كان أصغر منها بعشرسنوات وغيرلائق اجتماعياً. لقد أغواها ذلك الفتى الصيّاد عندما أوهمها بالحب ثم استثارها جنسياً، أفقدها الفتى عذريتها وبعد شهرين أحست بالحمل وكلمتنى نسمة فى هذا الأمر، كنا على أعتاب مرحلة الانفصال، وعرضت عليها أن أصحب منال إلى الدكتور إذا رغبت "فالولد" كان قد فرّ. بعد قليل أبلغتنى نسمة أن منال قد اتفقت مع "الولد" على أن يأتى معها إلى الدكتور فقط ثم يفترقان بعد ذلك، ثم إن منال بالتأكيد لا تريدنى أن أراها وهى فى هذا الوضع، وقد داومت نسمة على الذهاب إلى منال بعد العملية وعلى طبخ الأكل لها حتى عادت إلى حياتها الطبيعية.

أبتسم لأننى أتذكر أنه في تلك المكالمة البعيدة كان صوت نسمة يثيرنى، وكنت مبتهجاً لأنها خصتنى بالحديث، وكنت أكاد أبثها افتتانى حيث كنت أحس بأنها قريبة، لكنى كنت أتراجع.

عندما قلت لنسمة هذا بعد أربع سنوات ونحن على الكنبة، وجدت نفسى مثاراً إلى الدرجة التى لم أستطع معها الانتظار حتى تخلع ملابسها، مارسنا الحب وكانت لا تزال بملابس العمل، كنت متدفقاً للغاية وتسببت فى اتساخ ملابسها بينما عيناها مازالتا تلمعان.

طلق صادق نسمة بعد زواجه بها بأربعة شهور، عندما كنت أسالها عن السبب كانت تقول لى:

ـ مش عارفه.

سألتها مراراً طول فترة علاقتنا وبطرق مختلفة تبدو كلها عفوية، كنت آمل أن أمسك طرف خيط واحد، لكن الإجابة دائماً كانت طبق الأصل.

الشىء الذى ذكرته لي هو مشهد طلاقها: أمسكها أبوها من كتفيها وهزهما بعنف قائلاً:

ـ لو شفت الدموع في عينك لا تبقى بنتى ولا اعرفك.

تم الطلاق في هدوء بالغ وكان المأذون هو نفسه الذى حررعقد الزواج، وقال بعدها:

ـ ده أغرب طلاق شفته فى حياتى.

١٣

دخلتْ المطبخ تعد لي القهوة بينما كنت أحتضنها من الخلف أقبل رقبتها.

- بس يا واد.

- طب تعالى.

إلتفتت إلىَّ وكنا فى عناق أقبل شفتيها الخاضعتين المبتلتين حتى فارت القهوة.

- كويس كده؟

أتذكر أنه على مدى سنوات معرفتى بنسمة لم نستطع ولو مرة ونحن واقفان أمام البوتاجاز أن نضبط أى فنجان قهوة قبل أن يفور. كنا نملأ الوقت بالقبلات، وكنت أتعمد تهدئة الشعلة إلى أقل

درجة ممكنة كى يطول لنا الوقت المتاح للقبلات، لماذا ولدينا كل الأوقات؟ لماذا ولدينا الأيام والليالى؟

لا أدرى.

١٤

الرداء الأكاديمى لنسمة هو مجرد رداء.

قناع يغطى الضعف الإنسانى بكل ما يحويه من إنسانية بل وأيضاً بوهيمية.

قالت لى مرة: "We are the Crème Of the Society"

تعجبنى هذه العبارة التى قالتها ووجهها غير ناظر إليَّ، ومعنى ذلك عندها:

- ممنوع مناقشة هذه الجملة.

كان رأى نسمة أن المهن درجات، وكانت أعلى المهن فى نظرها العمل الأكاديمى، والطب،

والهندسة، والعمل الدبلوماسى.

كانت الفندقة من وجهة نظرها عمل من لا عمل له، وكانت تنظر إليها نظرة دونية، وتعتبرها عملاً خدمياً مثله مثل تنظيف البيوت والحمامات، وليس هذا فقط، بل كانت تنظر إليها أيضاً بريبة على أساس أنها تحوى ـ في الغالب ـ أنشطة مشبوهة أو نشاطات غير مشروعة وغير واضحة للكافة مثل القمار والدعارة.

وعندما أحدثها عن عملى السابق بالفندقة لا يبدو على وجهها أى تشجيع، وفى الغالب كانت تخفى الامتعاض.

اما عندما كنت أحدثها عن عملى بالمبيعات بعد سنوات الفندقة فلم يكن الأمر يختلف بل لعله كان يزداد سوءاً، فقد كانت تنظر إلى عمل المبيعات كعمل الذين يطرقون أبواب البيوت ويبيعون الصابون والأشياء التافهة.

ولم أكن أناقش نسمة فيما تبديه من آراء بصفة عامة لأن نسمة كانت تعتقد دائماً بأنها على صواب، وأية محاولة من جانبى للمناقشة تعتبرها نوعاً من الجدل الذي لا طائل من ورائه، لم تكن تقول هذا، لكن اتساع حدقة العين، وعلو الصوت قليلاً وخشونته كانا يحذرانى دائماً بأن الكلام "مش عاجبها".

أو تبدأ فى الانفعال وكأنى ألكزها بعصاة حادة، فأترك باب النقاش الذى لا طائل من ورائه.

قالت لى مرة:

ـ لو ما ابتدتشى حياتك في السياحه، كنت تتمنى تطلع إيه يا واد؟ كانت جالسة على الكنبة، وساقاها المخروطتان ممددتين أمامها.

ـ كان نفسى أكون صحفى وليَّ عمود أكتبه كل ...

إبتسامة إشفاق مع إغماضة عينين وهزة رأس يائسة إلى اليسار واليمين أوقفتنى. ثم لم تقل شيئاً، فذهبت إلى المطبخ وعدت حاملاً زجاجتى بيرة وضعت واحدة أمامها، والثانية أمسكتها ورميت نصفها في جوفى، قالت بعد فترة وقد اعتراها ضحك لذيذ:

ـ الظاهر يا حبيبى إن أى شغلانه جد مش بتنفعك، إنما أى شغلانه هلس بتفوت فيها زى الحديد.

أردفت وقد ألقت بالقنبلة:

ـ يا حبيبي إنت أكبر راجل ... شفته فى حياتى.

وأغرقتْ في الضحك، فارتميت عليها ألثم صدرها وهى تتمنع حتى وقعت منها الزجاجة.

وأحسست بها كم تحبنى رغم كل ما تقوله، أحسست أنها كانت تريد أن تخلع الرداء الأكاديمى، أو

أنها كانت تتمني لو لم تلبسه أصلاً.

ثم أنها غيرت رأيها بعد ذلك، فعندما كانت فى أشد حالات الصراع مع أبيها بسبب رغبتها فى الزواج بى تكلمت معه قائلة إن الأمور تغيرت، وإن الوضع لم يعد مثل زمان فقد تغير السلم الاجتماعى للمهن فصارت المبيعات مهنة محترمة مثل أى مهنة أخرى ولها شهاداتها الأكاديمية والاحترافية على السواء، ثم أن مرتب مثل مرتبى يبلغ على الأقل ثلاثة أضعاف مرتب أى أستاذ فى الجامعة، فما العيب فى ذلك؟

وبمناسبة العمل فقد كانت نسمة كثيرة الشكوى من العمل بمعنى قولها أنها تعمل كثيرا فى المشروع، و كانت أمها دائمة الرد عليها:

- سيبى المشروع وارجعى الجامعة أحسن.

- يا ماما الستات اللى بيشتغلوا فى الجامعه دول متجوزين من رجاله بيصرفوا عليهم وعلى مظهرهم لإن الجامعة لا تستطيع ذلك، لكن أنا ما أقدرش.

ثم تقول لى إن أمها لا تحس بالدنيا ولا بواقع الحياة الحالى، عايشة فى أيام زمان، أيام كان حال الأكاديميين أفضل كثيراً من الآن، وكانت تقول لى إن عائلتها مثل كثير من العائلات الأخرى، يجلس بها الأهل الأكبر سناً ثم يبدءون الحديث فى موضوع ما، فيبدأ إطلاق الأحكام بدون اطلاع حديث أو معاصر على المتغيرات الاجتماعية المتعلقة بالموضوع، وليس هذا هو المهم، ولكن الجميل فى الأمر هو الوصف الذى تصف به نسمة هذه الجلسات العائلية المليئة بالأحكام، أنقله عنها بلا تغيير: "فتاوى الشلت".

الرداء الأكاديمى لنسمة هو مجرد رداء لا يعنى أكثر من الوجاهة الخارجية. مجرد قناع تختفى وراءه وتخفى به نزعتها الماضية إلى الصعود الاجتماعى، لكنها في قميص نومها الأبيض القصير، الكاشف عن ساقيها الخمريتين تبدو لى على طبيعتها الغجرية البوهيمية.

تجلس فى "الخن" أمام الكمبيوتر الخاص بها، حافية القدمين، قدماها جميلتان، كنت أقبلهما عندما كنا نجلس على الكنبة، أو تضعهما على حجرى فى ليالى الشتاء حينما تكونان باردتين، كنت أدفئهما تحت ملابسى، أضعهما على بطنى وأغطيهما، حتى إذا بلغهما الدفء أخرجتهما ووضعتهما ثانية على حجرى، أبدا في الضغط على باطن القدم وكانت ترتاح كثيرا لذلك.

- رجليكى حلوة.

تشيح بيدها فى دلال وقد اعتراها المرح.

- يا واد انت باين عليك ما شفتش رجلين ستات قبل كده.

تضحك ثانية:

- إوعى تقول كده لحد احسن يضحك عليك.

أبتسم مخفياً قلقى البسيط عندما أفكر مَنْ مِن الممكن أن يكون له رأى مغاير:

- هو كان فيه حد له رأى تانى؟

تدرك ما أرمى إليه وبنظره من عينيها تطمئننى:

- ماما.

تضحك في سعادة وشبع.

أنظر إليها نظرة تطلب المزيد من التفاصيل فتستطرد:

- طول عمرها بتقول لى أوحش ما فيكى رجليكى.

أمسك بإصبعها الكبير وقد اعترتنى المتعة:

- ده مش حلو؟

يعتريها شعور هو مزيج من النشوة والخجل، تحاول أن تسحب قدمها من بين أصابعى وتفشل.

- لا مش حلو طبعاً. حبيبى مش شايف ازاى الظفر مقوس لفوق؟

أراه مقوساً نعم، ولكنه جميل بهذا الشكل، مثلما يتقوس كل شيء فى جسدها إلى أعلى، من الظفر إلى الفم، وإلى الشفة العليا منه التى تتقوس إلى أعلى، وأرى ذلك فيها فرط كبرياء طلبته قبل الوجود فمنحها الخالق إياه.

- وده؟

تسأل هى.

- حلو برضه، له شخصيه محايده لأنه غير ملتو إلى اليسار أو اليمين.

تضحك، ثم تعلّق على الذى يليه:

- بس ده بأه وحش لأنه مضموم ناحية الشمال.

- ده متقوس.

تريد أن تسألنى السؤال الذى أعجز عن الإجابة عنه، تظن أنى لن أجد إجابة هذه المرة.. تسألنى عن رأيى فى شكل إصبعها الصغير.

- الصُّغَيَّر؟

- أيوه.

تتحفز لسماع كلمة تردنى بها عن كل ما سبق، كلمة لا تستطيع تصديقها.

أمسك إصبعها الصغير، أرفعه الى فمى، أقبله.

- مش ده إللى دايماً بيتخبط فى رجل السرير؟

تنهض من مكانها ترتمى فى حضنى، وتزيح قدميها الناحية الأخرى، تطوقنى وتريد.

١٥

كان الذى ضاعف من تأثير نسمة فى حياتى شيء يتعلق بذاتى وأعماقى البعيدة، فمنذ سنوات بعيدة جداً بدأت أدرك شيئاً غامضاً فى نفسى، بدأت أدرك شيئاً فشيئاً أننى شخص لامنتم، فمنذ صباى وحتى الآن أنا حائر بين حب أشياء مختلفة، ولكنني أبداً لم تكن لدى الشجاعة أو العزم للمضى في طريق واحد، وذلك لأن الإيغال فى طريق معناه بالضرورة الابتعاد عن الطرق الأخرى.

أتذكر رباعية "صلاح جاهين":

جالك أوان ووقفت موقف وجود

يا تجود بده –ياقلبى- يا بده تجود

ما حد يقدر يبقى على كل شىء

مع إن- عجبى- كل شىء موجود

وبالنسبة للنساء فقد أحببت كثيرات منهن، ولكن المثير فى الأمر أننى لم أستطع أبداً أن أتخذ قراراً بالزواج من إحداهن، كان بداخلى دائماً جزء غير مقتنع، ربما شىء طامح يبغى الكمال، وربما شىء خائف يخشى القيد، لدرجة أنى كنت أفكر بأنى لو خلقت على هيئة عصفور لكان حالى أفضل، ولكن حتى العصفور يختار وليفاً، ثم إنه لابد له أن يختار، وأعتقد أن كلمة "لابد" هذه هى مأساتى فى الحياة.

نشأت غير واثق أبداً مما أريد أن أكونه: فمثلاً ما المهنة التى أريدها؟ لقد جاءت بالصدفة، ثم تحولت بى أمواج الحياة فتنقلت بين عدة مهن، أصيب النجاح فى كل مرة، لكننى لا أبتغى أبداً الوصول إلى القمة، كنت أحس بأن القمة قيد ووعد دائم بالجرى المستمر أسرع من الباقين، وأنا لا أحتمل الالتزام ولا القيود، ولا الجرى المستمر.

أتوتر.

حتى ملابسى أختارها دائماً واسعة فضفاضة كى لا تعوق جسدى عن الحركة، كيف أحتمل زوجة أبداً وأنا الذى خلقت علي هذا الوضع الغريب.

حتى شقتى بالمقطم اخترتها فى عمارة نائية ليس حولها عمران، وفى دور عال حتى لايرانى أحد.

١٦

كان أحد الأسباب الرئيسية لضيق نسمة بى مما اعتبرته أهم عيوبى، أننى ليس لى هدف فى الحياة، كنت من جانبى أضيق جداً بإثارة الموضوع حتى أكاد أختنق، لأننى فى حقيقة الأمر أعترف بأنى لا أعرف ما هو الهدف، وما جدوى حتمية أن يكون لديك هدف، حسناً .. إذا كان لابد لى من هدف فسأختاره هكذا: أن أكون سعيداً.

وعلى الوجه الآخر فقد كان من أعظم ما صُبغت به علاقتى بنسمة هو الاشتراك فى السخرية من كل شىء، ولقد كانت لديها بالفعل تلك النزعة الساخرة ولكننى أذكيتها فصرنا نضحك فى كل مكان غير عابئيْن، نسخر من مذيعة التليفزيون ومن الفيلم فى السينما، من أصحاب المحلات التى نشترى منها، نسخر من الساسة، ومن الفلسفة، ومن الأشكال المنمقة المصاغة بها الأفكار النبيلة، ثم كان الصيد المحبب لنا: الأفكار الجادة. وكان ضحكنا لا يتوقف بسهولة إذا ابتدأ، بل إنه يتواصل خاصة فى الأمسيات الجميلة، بتأثير التداعى الحر للأفكار.

هذه الروح كانت راقدة داخلها، وكانت تظهر فى لقاءاتنا المتباعدة طوال سنين بعيدة عندما كان حجم المعرفة بينى وبينها محدوداً بحكم انتمائها إلى صديقى القديم.

كانت نسمة- إذن- هى المرأة الوحيدة التى أحسست معها بالاكتمال، ورغبت حقيقة فى الزواج منها، بالرغم من أننى كنت أعلم أننا قد ننفصل لاحقاً بسبب عصبيتها الشديدة، والتى كانت تصيبنى بتوتر دائم، ينعكس بعد ذلك على لقاءاتنا الحميمة.

وذات يوم أخبرتنى بحديث قديم دار بينها و بين أمها، كان منصباً حول أسباب فشل زواجها الأول، ثم زواجها الثانى.

نقلت لى حرفياً ما قالته لها أمها:

- الظاهر انك عندك مشكلة فى السرير.

سألتنى نسمة:

- تفتكر؟

راوغت في الإجابة.

ثم إن المشكلة كنت أنا طرفها الثانى، وأنا لم أستطع أيضاً أن أحل المشكلة، وكان هذا بالتأكيد أحد معاول الهدم العديدة التى قضت على العلاقة بطريقة ميلودرامية، ولهذا السبب جاء انفصالنا وكأنه انشطاراً للروح، وهو التعبير الذى قلته لأمها في حديث تليفونى بيننا ووافقتنى على ذلك.

لقد كانت نسمة هى المرأة الوحيدة التى جعلتنى أنسى الخوف من الإقدام، فلما انسحبت من حياتى أحسست أننى أمام شىء لا أستطيع احتماله، ولا أعرف حقيقة ما إذا كنت سأستطيع أن أتواصل ثانية مع امرأة أم لا، لكنى على الأقل عرفت أن حاجز الخوف يمكن أن يكسر.

لقد قالت لى مرة:

- أنت شخص حساس مثل كثير من الأشخاص الذين يمكن أن تُجرح مشاعرهم بسهولة، ولذلك تتخفى دائماً بقناع بينك وبين الناس.

إذن هو الخوف الذى لازمنى منذ بداية عمرى، الخوف من الجرح، أيضا الخوف من الفشل، والخوف من الإحباط، ثم بعد ذلك الخوف من الوحدة.

إننى أدرك الآن فقط وأنا أكتب هذه الكلمات بأن الخوف كان صاحبى منذ البداية.

وقالت لى أيضاً ذات يوم ونحن جالسان فى "الخن" فى لحظة صفاء أنها تعتقد أن السبب الكامن فى عدم إقدامى على محاولة تغيير مهنتى فى المبيعات إلى سوق آخر يتميز بظروف أفضل تمكننا من مواجهة تكاليف المعيشة المريحة هو خوفى من الفشل وليس عجزى عن القيام بالتغيير، وكان ذلك صحيحاً فيما أعتقد، أما الذى حدث بعد فقدى إياها فكان شيئاً مثيراً للدهشة، حيث بدأت أفقد تدريجياً إحساسى بالخوف من الفشل، فاستطعت تغيير مجال عملى كلياً للمرة الثانية، ولم أعد أخشى الآن شيئاً بعد أن تخطيت ثلاث سنوات بعد الأربعين، حيث صار كل شىء مثل غيره.

ربما فقدت الكثير من خوفى الباطنى عندما أيقنت أننى لن أستطيع أن أكسب من الحياة شيئاً أكبر مما كسبته فى البداية ثم خسرته بعد ذلك.

وربما أيضاً إنه لإحساسى أننى لم يعد لدى ما أخسره أصبحت لا أخاف من شىء.

١٧

قبل انتهاء علاقة صادق بزوجته الأولى ذهبت إليه فى منزله، كانت قد غادرت المنزل، جلست معه في الأنترية الفسيح ذى الأثاث غربى الصنع، حاولت أن أفهم ما المشكلة، عندما شرح لى لم يبدُ علىّ أننى قد تقدمت كثيراً فى فهمى للموضوع، حاولت أن أبين له ميزة وجود زوجة جميلة وفيّة هادئة الطباع ودمثة الأخلاق، ولكن كل هذا قد ذهب سدى، ربما كانت مشكلته الحقيقية مطوية فى الأعماق.

لقد كان السبب الوحيد الذى ذكره صادق يومها أنها:

- مش اجتماعيه كفايه.

ولم يكن أحد من أصدقائه يرى هذا الرأى.

أما يوم زفافه على زوجته الثالثة فقد قال لى إن كارت الدعوة الخاص بى موجود في شنطة سيارته، وإنه يريدنى أن أحتفظ به للذكرى، أومأت برأسى موافقاً غير أننى لم أستطع أن أظهر حماسى، وفى الواقع فإننى لم آخذ الكارت أبداً .

فى الفرح قام المدعوون للرقص مع العروسين وهى عادة أمقتها لكننى دائماً أضطر إليها فى مثل تلك المناسبات. كانت الأفراح ربما حتى نهاية السبعينيات وقوره، العروسان يجلسان فى الكوشة بدون عرق ولا مجهود، والراقصة ترقص والمدعوون يتسامرون، كل فئة لها دور مختلف. لكن بعد بداية الانفتاح مباشرة حدث التغير الذى قلب أشياء كثيرة فى مصر ومنها عادات الأفراح.

عندما امتلأت ساحة حمام السباحة بالمدعوين راعنى أن وجدته يبحث عنى، لم أكن بحاجة للتساؤل عن سبب بحثه عنى أنا بالذات، يوجد كثير من الأصدقاء والمقربين أيضاً، لكنه لم يطلب من أحد الرقص معه على نغمات المزمار إلا أنا.

عندما التمعت عيناه تحت وهج الإضاءة الفوسفورية أتاح لى عقلى تسجيل تلك اللحظة كأندر اللحظات التى مرت على فى حياتى، ومهما أوتيت من قوة لن أستطيع أن أصف الأمر كما حدث بالضبط، لقد رقصنا على نغمات المزمار وأحسست أن الأمر كان مؤلماً جداً أن أراه ينظر إليَّ تلك النظرة، لكنى لم أستطع أبداً أن أسبر أغواره، فما الذى كان يريد أن يقوله؟ نحن لم نتبادل - أبداً - كلاماً حول هذا الموضوع، وما أحسبنا سنفعل مهما امتد بنا العمر، ولكن كيف لى أن أخطئ معنى نظرات عينيه، ولماذا اختارنى أنا بالذات؟ لقد كان هناك بالطبع معنى ما ولكنه لم يكن واضحاً، فهل كان يعاقبنى؟ أم يتوعدنى؟ هل كان يريد أن يقول لى إن الصداقة بيننا تلفظ الآن آخر أنفاسها؟ هل كان يريد إيصال رسالة ما إليها؟

لا أعرف، ربما شىء من هذا وشىء من ذاك، لكن الجملة التى أحسست بها أكثر رسوخاً بعد تلك الرقصة القصيرة هى:

- لن أغفر لك.

غادرت الفرح بعد ساعة واحدة وأنا أحس بثقل المجهود.

فى طريق العودة حادثت نسمة على المحمول، كنا مفترقين منذ ثلاثة أشهر، لكننا كنا نلتقى بين الحين والآخر. نسهر ونسكر ونرقص حتى الصباح، فأقول لها أحبك، فتبتعد فى خوف بضعة أيام أو

أسبوع أو أسبوعين ثم تعاود الاتصال بنبرة هادئة ليس فيها من أثر الحب شيء.

سألتنى وكانت تعرف الإجابة:

- كنت فين؟

قلت بصوت ضاحك:

- كنت في مشوار.

- مشوار ولا فرح؟

ضاحكاً:

- فرح واحد صاحبى.

كانت نسمة تعرف ميعاد فرح صادق، وكانت قد أخبرتنى به منذ حوالي شهر، عرفت ذلك من طرف وسيط لم تخبرنى أبداً به، إلا أن الدعوة بالطبع وصلتنى بمكالمة تليفونية منه.

عاجلتها بدعوة إلى السهر.

- فين؟

- زمالك.

مررت عليها آخذها ثم مررت على البنك وسحبت بالبطاقة ثلاثمائة جنيه حيث لم يكن معى نقود.

حين جلسنا إلى المنضدة قالت لى أنه بالرغم مما حدث، ومهما كان من أمر بيننا، كان ينبغى لنا بالفعل أن نلتقى تلك الليلة، فالليلة تعنى الكثير لنا نحن الثلاثة، نسمة وصادق وأنا.

آخر تليفون جاءنى منها قبل تلك الليلة كان قبلها بأسبوع حيث قالت لي وصوتها يرتج من الإنفعال أن صادق قد أرسل لها رسالة غير مباشرة بأنه رآنا معاً فى الاسكندرية.

- فين في اسكندرية؟

- عند "أبو أشرف".

- ماذا قال أيضا؟ وكيف أننا لم نره؟ وما الذى أتى به إلى ذلك المكان وفي ذلك الوقت؟

قالت وصوتها بادى الحيرة:

- مش عارفه.

- إحنا كنا قاعدين وضهرنا للباب، فماكانش ممكن منشوفوش وهو داخل لإنه حايكون عدى من جنبنا.

- ممكن يكون عدى من بره ومادخلش.

- ليه؟

- لإنه شافنا.. عارف قال إيه كما للوسيط؟

- إيه؟

قال إنه شافنا وآنا بأكلك الجمبرى بطريقة رومانسية.

- رومانسية دى هى بيت القصيد، فمجرد وجود اثنين فى مطعم شىء عادى، وإنهم ياكلوا مع بعض برضه شىء عادى.

أكملت هي صارخة من الضحك:

- لكن مادام قال رومانسية يبقى شافنا.

النايت كلوب فى الزمالك يغلب عليه من الداخل اللون الأحمر، تذكرت كم رقصنا فى هذا المكان وكم من ليال كانت لنا، اليوم أنا أشفق على نسمة ولذلك دعوتها.

المفروض ألا أشعر بالشفقة عليها، ولماذا أشعر؟ هل لأنها يمكن أن تكون حزينة لزواج صادق؟ وماذا يعنى هذا؟ هل انتهتْ من علاقتنا وجرحها من حبه – بعد – لم يندمل؟

فكرت أن الأمر ليس متعلقاً بالحب، إنه شعور لا إرادى بالتعاطف، فعندما يتزوج طرف كان معك فلابد أن يداهمك شعور ما، فى لحظة ما، ولابد أن يكون له معنى.

والمعنى الذى كنت أنتظره قد ظهر في اليوم التالى مباشرة.

في تلك الليلة اتفقنا –للمره الألف- أننى لا يجب أن أشعر بأى إحساس بالذنب تجاه صادق لمجرد أننى أحببت المرأة التى كانت زوجته، وأن هذا يحدث فى أحسن العائلات.

صباح اليوم التالى وبينما كنت أدير محرك السيارة للذهاب إلى عملى رن جرس الموبايل.

قالت بصوت مشوب بالحماس:

- صباح الخير.

- .....

- شفت اللى حصللى من ساعه؟

- خير.

- قمت من النوم عندى زهد فى كل الخمره اللى فى البيت، دلقت "الأزايز" كلها فى الحوض.

- يا شيخه. اشمعنى؟

- مش عارفه، شىء مالوش تفسير، حاسّه إنى مش محتاجه للخمره تانى.

١٨

اكتوبر ٢٠٠١

الساعة الحادية عشرة صباحاً.

شارع سعد زغلول.

الشمس دافئة.. والهواء منعش، والشوارع غير مزدحمة فى هذا الوقت من العام.

"نسمة مظهر" وأنا نجتاز موقف السيارات الواقع فى ميدان سعد زغلول، نعبر شارع الغرفة التجارية بعد أن نتفرج قليلاً على الشباشب والأحذية، دقيقة ونصبح فى شارع سعد زغلول، على ناصية سعد زغلول والنبى "دانيال" توجد مجموعة من الإيشاربات المعلقة على حامل خشبى فى مدخل إحدى العمارات، تتفرج نسمة على الإيشاربات كلها ثم تتركها الى مجموعة أخرى عند بائع آخر، وتعود إليها ثانية.

- إيه رأيك فى ده؟

مبتسماً قلت:

- حلو.

كأنى لم أقل شيئاً، تقلب ثانية ثم تخرج "إيشارباً" آخر.

- ده كمان لايق قوى .. إيه رأيك؟

نظرت إلىَّ بعينين متسائلتين، فخيل لى أن القرار أصبح ملكى وأننى أستطيع أن أتم الشراء وننتهى من الأمر.

أداعبها أكثر بوضع يدى على كتفها إشارة لرضائى التام عن الإيشارب.

أتلفت حولى ناظراً إلى العمارات القديمة والأرصفة، هذا رصيف بلاطه حديث بعض الشيء، الآخر يبدو عليه أنه من الخمسينيات أو ربما الأربعينيات، حينما كانت الاسكندرية مدينة صغيرة، أو قرية بالنسبة لما هى عليه الآن.

يدى على كتفها ألتفت إليها لأدفع ثمن الإيشارب، بينما فى النهاية تنتقى إيشارباً آخر وتضعه على الجاكيت الجينز فاتح اللون الذى ترتديه، تنظر إلى بعينين ضاحكتين متسائلتين:

- حلو؟

تضحك بمنتهى السعادة، وتخبطنى خبطة خفيفة على صدرى ونحن واقفان على الناصية بعد أن دفعت للرجل الحساب وهو عشرة جنيهات.

الحادية عشرة والنصف فى البن البرازيلى.

الرجل الأسمر النوبى يمد يده مصافحاً قبل أن يتلقى "البون" ليبدأ في عمل القهوة.

- إزيك يا سعادة البيه؟

تنظر إلي نسمة بسعادة، وتفهم أن الرجل عِشرة عمر.

قلت لها أن هذا الرجل كنا نأتيه أيام كنا طلبه في الجامعة، وكان "الكابوتشينو" وقتها بحوالى ثلاثة وعشرين قرشاً، بعض الناس في هذا المحل كانوا يأتون ليشربوا القهوة فيأخذوا الفناجين ليقفوا بها على الرصيف، أو يتكئون على السور الحديد على طرف الرصيف، هذه الفئة ملامحها غريبة بعض الشىء، فيهم "عرق أجنبى"، كيونانيى الإسكندرية القدامى.

نسير على الرصيف باتجاه محطة الرمل، نرى دار المعارف فندخل، تسأل نسمة عن بعض الكتب الفرنسية التى تتحدث عن الإسكندرية فى العصور القديمة. يجيب البائع بأنه توجد كتب بالفعل تتحدث عن الإسكندرية القديمة، ولكنها بالعربية، تعود نسمة تسأل وقد ارتفع صوتها قليلاً:

- لا أنا عاوزة كتب بالفرنساوى عن اسكندرية القديمة، بالفرنساوى بقول.

يبحث الرجل، وأنا أتوجس مما قد يسفر عنه الحديث، يعود الرجل بالرد الذى أخشاه:

- هو فيه حاجات عن اسكندرية بالفرنساوى، بس خرايط مش كتب، حاجات للسياح كده.

أسحب نسمة من ذراعها وأخرج بها من المحل، تتمتم ببعض عبارات الغضب وهى خارجة، لم أشأ أن أقول لها أنها لايجب أن تتوقع الأفضل دائما من الحياة، والأفضل من ذلك أن تتكيف مع المستويات المختلفة للإدراك حتى تسير الحياة بنعومة.

لم أشأ أن أقول ذلك حتى لا أقع أنا نفسى فى النطاق التعريفى للمستويات المنخفضة للإدراك، أو الذين عندهم استعداد دائم لتبرير الخطأ.

لدهشتى، فإنه سرعان ما تعود نسمة إلى صفوها وضحكها، تعود نسمة التى لا أخاف منها.

رغم أنها قالت لى مرة ضاحكة عن بواب العمارة أنه لما اشترى موبايلاً جديداً، أو بمعنى أدق اشتراه له السكان لكى يستطيع من يريده أن يطلبه، لما حصل على ذلك الموبايل قابلها على السلم، وطلب منها رقم تليفونها لتسجيله، وعندما سجل الرقم والاسم وقبل أن يضغط على زر الحفظ أراها الشاشة، ثم قال لها بصوت العليم بالأمور وهو يضغط:

- موافج.

ولقد أطال الألف ثم شدد على القاف كما نطقها.. كالجيم.

حكت لى نسمة يومها هذه القصة وعلى شفتيها ابتسامة تحمل كل معانى السعادة لكوميديا الموقف وتغنى عن الاسترسال فى الموضوع.

كانت نسمة تحب البسطاء كما كانت لها طريقتها في الكوميديا والتسامح أحياناً.

لكن من كان يستطيع أن ينظر فى وجهها وهى تصيح وتنادى على البواب من شباك المطبخ:

- محروس.

- محروس.

الميم كانت خاطفة، والحاء ممتلئة ورطبة كفحيح، والواو تضم الراء بقوة، ثم نأتى إلى السين:

فيها نغم رفيع حاد، وفيها غنج، وعلى رقبتها كانت تظهر عروق نافرة ، أما على وجهها فكان يوجد غضب غير مبرر.

لا تستطيع أن تكلمها وهى فى هذه الحالة، أما الأدهى فهو أنك لا تعرف ما السبب فى هذه الحالة سوى أن المحروس لم يرد، وهو فى الغالب لم يسمع، أو لعل أحداً من السكان قد أرسله فى مشوار كما تريد هى أن تفعل بالضبط، ولكن هيهات أن أكلم نسمة بالمنطق وهى فى حالة تسمح لها بالقيام بثورة لو جادلها أحد.

١٩

أمامى الصورة التى التقطت لنا فى استوديو "جود شوت" الواقع في منتصف شارع صفية زغلول إلى اليسار مع اتجاه السيارات.

هذا الاستوديو كنت أعمل فى أحد فروعه بالعجمى فى أوائل الثمانينيات حينما كنت فى الجامعة.

كنت مغرماً بالتصوير الفوتوجرافى وقتها وبدأت أصور الطلبة الزملاء أوقات الرحلات الخارجية والحفلات التى كانت تقيمها الجامعة، وذاع صيتى وقتها حتى إن مصور الكلية وكان اسمه "زغلول" عرض عليَّ - وكنا فى حفلة داخلية - أن يدفع لى مبلغاً من المال شريطة أن أترك الكاميرا بجانبى وأجلس كأى طالب عادى.

رفضت وقتها المال فقد كان شيئاً هيناً، ثم إنى وأنا فى العشرينيات كنت فخوراً جداً بامتلاكى لموهبة التصوير.

خرجنا من شارع سعد زغلول إلى صفية زغلول، سائرين على الرصيف من جهة اليسار، لحسن الحظ كانت معظم المحلات "رجالى" وهذا ما جنبنى مشقة الوقوف أمام كل محل.

ما أن وجدنا أمامنا محل التصوير حتى هتفت نسمة فى فرح:

- الله .. تعال نتصور.

أرى نفسى فى الصورة بقميصى البيج ذي التقاطعات الفزدقية، وبشعري القصير، عيناى مبتسمتان، وهى بجانبى أحوطها بذراعى، شعرها الكستنائي منسدل وفمها المرسوم كالعنقود يبتسم مظهراً سنتيها الأماميتين.

تَظهر أذنها اليسرى فى الصورة ممسكاً بشحمتها القرط الذهبى المستدير اللامع، أما العقد فهو ذهبى أيضاً لكن اللون منطفئ قليلاً، لعله تأثير الفلاش، رقبتها وصدرها برونزيان، وقبل افتراق النهدين يوجد "Body" أسود خفيف غير ضيق، عليه الجاكيت الجينز الأزرق الفاتح، وفوقها حول الرقبة الإيشارب الذى اشتريناه لتونا من سعد زغلول، لونه بيج وتوجد به نقوش بشكل ورق الشجر، لونها أزرق فاتح بلون الجاكيت، وأوراق أخرى بلون عصير الرمان المخفف، وأوراق أخرى فى عائلة البنيات، ولكن فاتحة هي الأخرى.

هذه أول مرة أنظر إلى الصورة وأنا أصف ما أراه فيها حيث لم أكن قادراً - أبداً - على رؤية نسمة بعد أن افترقنا.

الآن، وبعد أن ذهب كل فى طريق، أرى جزءاً من هذا الإيشارب معلقاً على المرآة الداخلية لسيارتها ومدلى إلى أسفل، أراه عندما أمر - أحياناً - ليلاً أمام بيتها لأتأمل السيارة التى تكون أحياناً مركونة بتهور أو بعدم حرص كاف أمام البيت، وتكون مؤخرتها معرضة لأن يصطدم بها شىء، كنت أحذر نسمة دائماً من ذلك و كنت أقول لها إن مؤخرة سيارتك جميلة مثل مؤخرتك، ونضحك.

٢٠

إشتد بى الحنين إلى الإسكندرية ذات يوم فأخذت سيارتى وانطلقت وحدى، وعندما حل الغروب كنت قد وصلت إلى الملاحات، الرائحة نفاذة تزكم الأنف، ثم الرطوبة وهواء الإسكندرية الذى يملأ

الصدر، كانت الحديقة الدولية إلى يمينى وأنا أعبر شارع قناة السويس متجهاً إلى الكورنيش عبر النفق الذى فى آخره الترام والمقابر اليونانية الجميلة.

عندما عبرت الترام نظرت إلى كلية الآداب حيث كانت إلى اليسار، تذكرت أيام كنت شاباً فى العشرين.

استقر بى المقام فى فندق سيسيل على سطوحه الساحر الذى يطل على الميناء الشرقية ويرى "المرسى أبو العباس" ومنطقة بحرى حيث مراكب الصيد الكثيرة المنتشرة على الشاطىء، أرى من هناك أيضاً بيت حبيبتى القديمة أيام الجامعة والتى كانت تشبه نسمة. جلست إلى الكرسى الذى جلست إليه من قبل عندما كانت معى نسمة.. ثمة تصور أنها معى الآن وأنها كانت معى وأنها ستبقى معى.

طلبت بيرة وطبقاً من الجمبرى، تكرر طلب البيرة و بدأت فى الإيغال، عندما أوغل فى المياه العميقة أكون قد نسيت كم زجاجة شربت، وهذا هو المهم، أن لا تتذكر البدايات، ثم تغيب أنت والوعى أكثر فلا تستطيع أن تتوقع النهايات، وإن لم يكن الذى أنت فيه إلا فقداناً للحاضر فما عساه أن يكون إذن؟ سبب آخر وجيه لاحتفائى بالشراب وهو أنها الآن لابد أن تكون فى بيتها والمساء قد حل، ولابد أنها تشرب لتفقد القدرة – مثلى - على الإحساس بالألم، وكان تصوري دائماً هو أنه إذا كان التباعد المكانى قد فرض فرضاً، ورمانى فى الإسكندرية فى هذه الليلة الشتوية، فلألقاها هناك إذن فى المياه العميقة، كثيفة الزرقة، والمشتركة بيننا، والتى يصنعها هذا الكحول عندما يفتح أبواب التلاقى.

قلت: إذا تباعدت عنى يا نسمة فأنا المتقارب إليك، الواصل ما انقطع، وليس شيىء يمكنه أن يقطع ما بينى و بينك، ما من شيىء يمكنه ذلك.

أبداً ..أبداً.

ولا حتى أنا وأنت معاً.

نظرت إلى ساعتى، وجدتها الواحدة بعد منتصف الليل، معنى ذلك أنه قد مضى علىّ فى المكان خمس ساعات متواصلة، كنت قد افتقدت المكان بشدة لأنه شهد حواراً من أجمل حواراتنا على الإطلاق بالرغم من أننا لم نجلس فيه إلاّ مرة واحدة، لكن تلك المرة كانت فيها نسمة متسامحة، وحددت طلباتها فى الزواج، قالت إنه يكفيها جداً أن يكون شهر العسل فى الاسكندرية ولا داعى لأن تحملنى ما لا طاقة لى به وهو السفر للخارج، قالت لى:

- أنا أسعد ما أكون اليوم، وأنا أرى أن حياتى معك أجمل ما تكون ونحن فى البساطة، يكفينى معك

قضاء أسبوع أو اثنين هنا فى المدينة التى تحبها، والتى أحببتها أنا من أجلك، ويكفينى التمشية فى شوارعها ليلاً أو نهاراً، فالسعادة ليست فى البذخ أو البهرجة، السعادة بسيطة جداً.

وأنا قد جربت السفر للخارج وجربت حياة الترف برغم أن حياتى فى البداية لم تكن كذلك، ورغم كل ما مر بى من تقلبات إلا أنى أشعر الآن بأنى فى حاجة إلى الهدوء والسكينة أكثر من أى شىء آخر، وأنت تمنحنى الارتياح وحب الحياة كما لم أحس بهما من قبل، ولذلك فأنا أقبل الزواج منك بكل جوانحى، وأقبل بأبسط شىء يمكن أن تقدمه لى، ولذلك أرى أن نقضى شهر العسل هنا فى الإسكندرية ولا داعى لإرهاق أنفسنا فى مصاريف إضافية وسفر للخارج.

نزل هذا الكلام برداً وسلاماً على قلقى ومخاوفى فأطفأها، ويبدو أنها لاحظت ذلك، فأردفت بكلمة أصيلة من كلماتها لكى لا أستكين:

- رغم إن هذا من حقى.

لم أرد أن أقول لها إنها حتى فى زواجها بصادق لم تسافر للخارج، لكنه أخذها إلى فندق عادى فى الغردقة، بالرغم من إمكاناته التى تتعدى إمكاناتى بمراحل، وكنت أنا الذى حجزت لهما مكاناً فيه.

٢١

جلستْ أمام الكمبيوتر بقميص نومها الوردى القصير، وبشعرها الكستنائى وقدميها الحافيتين،

ونظارتها الطبية الفضية الصغيرة، وفمها المفتوح دائماً كلما جد أمر لا تفهمه.

أكثر وقت كانت تفتح فيه فمها بهذه الطريقة هو أمام الكمبيوتر، فهو يحوى من طرق الاستخدام بدائل كثيرة متفاوتة ما بين الصعوبة والسهولة. وكل شىء نسبى فى نهاية الأمر، لكن نسمة كانت تركز – عادة – على طريقة واحدة أو اثنتين على الأكثر لكل أمر أداء، تكون هذه الطريقة فى معظم الأحيان هى الطريقة التى تعلمتها أولاً، وهو ما يتعارض أحياناً مع السلاسة فى العمل وتجديد المعارف، وعندما يحدث هذا كانت تشتكى لى أو تحكى عن المشكلة، وهنا تكمن إحدى طواحينها الفكرية.

فأنا أتحمس للإجابة، فأحكى لها عن طريقة الحل، فتتجاهلنى، فأظن أنها لم تسمع ربما بسب انهماكها فى التفكير، فأعيد عليها الكلام فلا تجرب إلا كيفما كانت تجرب من قبل، والذى معناه فشل آخر، أما لو لذت بالصمت لاعتبرت ذلك إهانة وإهمالاً منى لشأنها، ولتحاشى ذلك لايكون أمامى غير تقديم الاقتراح الذى أعرف مقدماً أنه لن ينفذ، وأن ما سيحدث هو أنها ستقوم من أمام الكمبيوتر بعد أن تكون قد استنفذت كل المحاولات قائلة:

- عموماً.. الإنسان عدو لما يجهل.

ألوذ بالصمت وأنا أميّزُ من الغيظ، وأكون راغباً بشدة فى التعقيب هكذا:

- حتى لو جاءه من يعلمه؟

لكنى أحجم، فأن تنسف الليلة من أساسها من أجل قضية لا معنى تقريباً لها، لهو – فى رأيى - أمر بعيد عن الحكمة، لكن إن لم تتجل الفتنة فى امرأة تلبس قميص النوم القصير، وترتدى نظارتها الأكاديمية، وتفتح فاها فى دهشة الصغار، ثم تستطيع أن تضعك فى طاحونة إذا ما تكلمت، فمتى تتجلى إذن؟

أنشغل بالنظر إلى "دريم" بينما أرتشف من البيرة وأشعل سيجارة وأتمدد على الكنبة فى انتظارها حتى تنتهى. جرس التليفون يرن، تقوم من أمام الكمبيوتر جارية لتلحق بجهاز إظهار رقم الطالب الموجود على "الكومودينو" بجوار السرير فى غرفة النوم، الذى يحدث هو المشهد الكوميدى الآخر الذى أستمتع به كثيراً والذى – من الأساس – أكون متأكداً من حدوثه، حيث تصطدم قدمها اليسرى برجل السرير وتتأوه من الألم دافعة رجلها اليسرى إلى أعلى أثناء السير، ممسكة بإصبعها الصغير بين الحين و الآخر، أضحك من الداخل ويحبها قلبى، أعلم أنها تحب المشى بسرعة وأعتبره طاقة زائدة فيها، لكن هذه الطاقة الزائدة تعوزها الروية والحكمة أحياناً، وهو ما كان ينطبق أيضاً على نمط تفكيرها.

مررنا بفنادق الإسكندرية الواقعة على الكورنيش من كليوباترا إلى محطة الرمل، فى كل فندق كنا نلمح الشك والريبة فى عيون موظفى الاستقبال والأمن.

كنا قد وصلنا إلى الإسكندرية ظهراً هذه المرة، ولم تكن ظروف بيتى ملائمة، فقد كان أخى يقيم بالمنزل فى إجازة قصيرة من عمله.

كانت فكرة صعبة عليهم أن يقوموا بتسكين رجل وامرأة معاً، حتى ولو فى غرفتين منفصلتين، فلقد جاءا معاً، وبالتالى غرضهما واضح: ممارسة الجنس.

ما تتركه نظرة عيونهم من انطباع فى نفسى إنما هو الطرافة، دمهم حامى هؤلاء الإسكندرانية.

يقع فندق "الكريون " فى أحد الشوارع المتعامدة على الكورنيش في المنطقة ما بين محطة الرمل والمنشية.

أعطاني الموظف غرفتين كل منهما فى طرف من أطراف الفندق، فقد كان الفندق أشبه بشقتين منفصلتين فتحتا على بعضيهما البعض، ووضع مكتب الاستقبال فى المنتصف، وبالتالى فكان يتعين علىّ إن أردت زيارتها فى غرفتها فى المساء أن أمر على مكتب الاستقبال هذا، ولما كنت فندقياً قديماً فقد كنت أدرك تماماً وبلا أى ريبة ما يفكر فيه موظف الاستقبال، فتركت لها مهمة الكلام على أمل التخفيف من هواجس الرجل حتى و إن لم نكلل بالنجاح.

قالت:

ـ إحنا عاوزين "أودتين" جنب بعض.

رد عليها الرجل بإصرار مشوب بالارتباك.

ـ للأسف ممنوع.

ـ ليه؟

ـ تعليمات وزارة السياحة.

ليست هناك – بالطبع – أى تعليمات بهذا الشكل، إنما هى فقط أعراف فندقية، وليست حتى تعليمات الأمن الداخلى للفنادق، إنها "شىء" موروث من عاداتنا العربية وحسب.

لم تكتف نسمة بهذا، و إنما التفتت إليَّ وسألتنى أمامه:

ـ فيه تعليمات بتقول كده؟

ولما كانت تعلم بأنى لن أجيب الإجابة التى من شأنها أن تزيد المجادلة طولاً فقد رجعت إليه وخاطبته:

ـ أهو قدامك رجل فندقى قديم، إسأله.

موجهاً حديثى إليها:

- ياللا طيب من هنا، فيه فنادق ثانية كثير.

قال لى:

- يا فندم إيه المشكلة؟ الغرف كلها حلوة.

ردت هى:

- المشكلة إن أنا أول مرة آجى فندق زى كده فى حياتى، ولا يمكن أحس بالامان إلا وهو جنبى.

- يا فندم اللوكاندة كلها "سكيوريتى" والأمان موجود.

قالت له بعد أن شاهدنا الغرف ورضينا بالسعر:

- حَ نفكر.

خرجت مرفوعة الرأس، وكنت أريد أن أقبلها فى الشارع ولكنى لم أفعل.

فى فندق "مكة" كان الموظف أكثر صراحة فقال لنا بمجرد أن دخلنا:

- لا نستطيع أن نسكن رجلاً و امرأة جاءا معاً ولو حتى فى دورين منفصلين.

نترك محطة الرمل بفنادقها ونقترب من الابراهيمية وكليوباترا.

تنظر إلينا الموظفة صغيرة السن فى ريبة، ثم تقول لنا بالنص:

- بس يكون معلوم علشان ما نختلفش مع بعض من الأول: ممنوع دخول حجرة الآنسة بالليل.

الضحك الذى أكتمه ولا أحسب نسمة إلا أنها تفعل مثلى هو أجمل من الليلة نفسها بمراحل.

يكفى الجملة التى عقَّبتْ بها عندما خرجنا على كلام البنت.

- تقصد تقول ممنوع النط على الآنسة.

الضحك الذى يملأ جوانحنا يصعب وصفه ونحن نتلقى الإهانة تلو الإهانة ولا نعبأ، كأننا لا نقصد أن نفعل شيئاً من ذلك، وكأن رغبتنا هى فى النزق لذاته، وليس من أجل الوصول لأى هدف بعده.

في فندق"سان مارك" لعبنا لعبة أخرى، للتمويه على موقفنا مع الإسكندرانية طلبنا خصماً على السعر الرسمى باعتبار أن هناك فاكساً من الشركة التى نعمل بها قد وصل الفندق.

سأل الموظف:

- شركة إيه؟

قبل أن أنطق كانت إجابتها حاضرة:

- لأ ده مكتب خاص.

ذكرتُ اسماً وهمياً.

قال الموظف إن هذا المكتب غير متعاقد مع الفندق وبالتالى لن نستطيع أن نأخذ سعراً خاصاً.

أردف:

- لكن تستطيع سيادتك أن تأخذ غرفتين بالسعر العادى.

الموظف كان يحاول أن يبيع بأى ثمن، وهذا ما كنا نهدف اليه، شاهدنا الغرفتين، كانت واحدة فى الأدوار الأولى والثانية فى الأدوار الأخيرة، قالوا لنا بأن جميع غرف الفندق الأخرى مشغولة وبالطبع لم يكن هذا صحيحاً. أدركنا عدم جدوى الجدال، نظرة متبادلة ثم نزلنا إلى الاستقبال.

- ح نفكر.

- حبيبتى إحنا من الساعة ٣ بندور على فندق، اليوم راح وقد مضى علينا الآن ٦ ساعات والساعة دلوقتى ٩. يعنى ٦ ساعات من الإهانات أعتقد إنها تكفينا من أهل الإسكندرية. لم تكن ملاحظتى بها أى شائبة من الضيق، وهذا هو العجيب فى الأمر.

نحن فى استانلى هذه المرة، وقد قررنا أن نستسلم وأن نقبل أى غرفتين و لو حتى فى فندقين مختلفين حتى نستطيع أن نتفرغ للسهرة بعد ذلك.

سجلنا أوراقنا فى الفندق وذهبت أحضر بطاقتها الشخصية من حقيبتها فى السيارة، أول مرة أرى صورتها وهى صغيرة شابة فى أوائل العشرين، كانت شيئاً عادياً جداً، وجه مألوف لا يميزه شىء.

إبتسمتُ، نسمة من ذلك النوع من النساء الذى يظهر جماله ثم يزداد مع التقدم فى السن.

رجعنا إلى محطة الرمل مرة أخرى فى الطريق إلى الشيخ على، شاهدنا مبنى إدارة الجامعة فى الشاطبى، ثم السلسلة، ثم الأزاريطة، ثم وصلنا إلى محطة الرمل. هكذا كنت أصف لها.

إنحرفنا يساراً عند ميدان سعد زغلول ثم يميناً فى الشارع المتجه إلى المنشية، ثم يساراً عند موقف سيارات "المشروع" ، ثم إلى الأمام حتى شارع سعد زغلول فيميناً فى الشارع الضيق الذى فى آخره يقع بار الشيخ على، المدخل عبارة عن ألوميتال بنى يحيط بزجاج معشق مرسوم عليه ورود فاقعة الألوان، شىء لا يشى أبداً بأن ثمة عالماً سحرياً من الممكن أن يكون بالداخل.

بمجرد أن أخطو إلى الداخل أرمى الزمان والمكان والظرف والحدوتة، كأنما أرجىء قطار العمر يوماً إلى حين أفكر إلى أين أنوى أن يكون الاتجاه، وتجلس نسمة جانبى إلى البار الوردى.

هى فى أقصى اليسار فى الركن القصى.

ثم أنا، ولا شىء بعد ذلك.

أعرف بعض الوجوه السكندرية هنا، الدكتور سامح طبيب الأطفال، يأتى مرة فى الأسبوع وأحياناً مرتين ويكون ذلك بعد العيادة.

تزوج وطلق مرتين وليس لديه أولاد، تصادقنا لفترة من الوقت بعد انتهاء علاقتى بنسمة ثم فترت صداقتنا، فقد كان كثير المعارف من النساء المصريات والأجنبيات على السواء ومشغولاً بهن.

علاء رجل الأعمال الشاب، يذهب إلى القاهرة كل يوم جمعة لتحصيل أمواله، وهذا الخواجه المدعو "Walter" الذى يأتى إلى المكان يومياً بعد أن يكون قد مر على مكانين آخرين قبل ذلك.

يجلس أولاً فى "إيليت" بصفية زغلول، ثم ينتقل إلى مكان آخر في شارع فؤاد، ثم ينتقل إلى "الشيخ عليّ" حيث محطته الأخيرة.

الرجل يعمل مديراً لأحد المشاريع الأجنبية بالمكس، غير متزوج وأمضى عشرين عاماً خارج وطنه، كل عدة سنوات في بلد.

بعد افتراقى عن نسمة قابلته مرة في "ايليت"، عرفت منه أنه انتقل للعمل فى دمياط، عرفت أيضاً من محمود "البارمان" أن الخواجة لم يعد مرحباً به لأنه دائماً يغالط في الحساب ويتشاجرعندما يسكر.

وهذا الليبي الأسود، يتكلم الإنجليزية كأهلها ويقولون عنه: ثراؤه فاحش.

بعض من أصحاب المحلات في محطة الرمل.

وجوه أخرى من القاهرة، وأخرى لأجانب يعملون في المراكز الثقافية الأجنبية والمنظمات الأهلية بالقاهرة والإسكندرية.

ممدوح الرجل التركى الذى عاش كثيراً فى الإسكندرية، متزوج من مصرية ويعمل وكيلاً لإحدى الشركات التركية فى مجال المنظفات.. وغيرهم.

راق لى مقام الهزام فأخذت العود من عبد الله وغنيت "ليلة امبارح ماجاليش نوم".

سكت الحضور عندما أمعنت فى الأداء، بين كل قفلة وأخرى كانوا يصيحون، ولما انتهيت طلب بعضهم الكارت الخاص بى لكنه لم يكن معى.

أنا فى هذا المكان لا أحد، ومن الممكن أن أكون أى أحد، ومن الممكن أن لا أكون كائناً على الإطلاق.

إكتفيت بإعطائهم رقم المحمول.

الليلة كانت ليلاء ولا أعرف كيف غادرنا.

وكيف خرجنا من الزقاق المظلم الضيق إلى ميدان المنشية وأخذنا طريقنا إلى الفندق.

- ما تسبنيش لوحدى يا حبيبى.

- حبيبتى هنا ما ينفعش، هنا فندق، مش بيت.

- تبقي مش بتحبنى.

أبذل جهداً كبيراً فى إقناعها بأنه من غير الممكن المبيت معها في نفس الغرفة، لكنها لا تقتنع، وتكرر لى أننى لا أحبها.

قلت لها إننى متأكد من أنه الآن هناك شخص يقف فى الظلام خارج باب الغرفة، وأننى - إن لم أخرج - فإنهم بعد خمس دقائق فقط سيخبطون على الباب وسيطلبون منى الخروج، وسيكون علىّ الخروج رغماً عنى، وسيكون الموقف غاية فى السخف.

- و لو خرجت دلوقتى ما انت حتلاقيهم برضه.

- لى طريقتى.

وأنا أغادر رغماً عنها كانت دافنة وجهها في المخدة.

- أنا زعلانة منك.

أشعل سيجارة ثم أفتح الباب وأخرج، لا أحد، أصعد بضع درجات فقط، فينقضُّ علىّ رجل أمن فى الظلام كرسول موت.

- كنت بتعمل إيه جوه؟

- كنت بولَّع سيجارة.

كان أبعد ما يكون عن الاقتناع، لكن السيجارة كانت مشتعلة فى يدى على أية حال.

الإفطار بساندويتشات الجبنة بالكريمة على الطريقة الإسكندرانى من شارع "خالد بن الوليد"، عندما طلبت السندويتشات أمهلنى الرجل خمس دقائق حتى عبر الشارع إلى الفرن الأفرنجى وأحضر لنا أرغفة طازجة وكأنه نوع من الاحتفاء.

ركنت السيارة فى شارع عمودى على الكورنيش ثم عبرنا سيراً على الأقدام، إخترت لها مكانا من الأماكن المظللة المنشأة حديثاً بعد التجديد الأخير وجلسنا إليه. أكثر ما يميز هذه المنطقة فى "سيدى بشر" رائحة صدأ الحديد المنبعثة من الخرسانات المتآكلة للعمارات القديمة الواقعة فى الشوارع المتعامدة على البحر.

تذكرت صباى.

أكلت نسمة ثلاثة سندويتشات على غير العادة، اثنين بالجبنة الرومى والكريمة وواحد مربى بالقشدة.

لم أقل لها كم منحنى هذا من السعادة، اعتبرته دليلاً على قربها منى، فها هى تزور معى أماكن الصبا القديم، وأنا أحس بالحيرة فى التعرف على زمنى وعمرى، فهل عدت إلى الوراء وأنا الآن أستشرف المستقبل؟ أم أننى فى المستقبل الذى هو حاضر والأمر كله أن ريحاً هبت من الماضى حملت نفس الرائحة، رائحة صدأ الحديد.

ذهبنا إلى "أبو قير"، أريتها العشش القديمة المقامة بجوار المياه فى كل مكان، ظهر لى فى المنطقة شاب سكندرى أخذ يصيح بى:

- عاوز عشه يا بيه ؟ عاوز عشه يا بيه ؟.. ح ترتاح.

أخذنا نضحك.

قالت لى:

- الواد ده مكانه فى الفندق مش هنا.

وطريق العودة الذى تناولنا فيه البيتزا فى "شيجابى".

وفندق سيسل على السطح.

والقلعة التى أردنا أن نزورها بعد الغداء و لكننا لم نزرها ابداً.

ونسمة تقول لي:

- فى شهر العسل يا حبيبى مش عايزه أروح تركيا، ولا اليونان، عايزاك تجيبنى تانى اسكندرية.

بعد أن دنت لى نسمة عاقبْتُها، وفقط بدأت فى عقابها عندما أحسست بأنها أصبحت لى. ربما كان ذلك هو خطأى الأساسى وربما كان طوق نجاتى، لا أدرى. فى الواقع كانت الغيرة تملؤنى بسبب ما كان من أمر علاقتها بصادق، وكانت خبيئتى تنطوى على شماتة خسيسة ألمحها أحياناً تعبر على شاطىء النفس طافية، كنت أنكر فى نفسى هذا الإحساس لكنه كان موجوداً فى اللاوعى.

عندما كنت أسألها أحياناً - بعد أن أصبحت لى - لماذا قضت معه كل تلك السنوات رغم العذاب ورغم خياناته لها، كانت تقول بصوت فيه كثير من الانكسار:

- كنت باحبه.

ولم أجرؤ – أبداً - على سؤالها ما الذى كانت تحبُّه فيه؟

هل هو طوله الفارع وملامحه الرومانية؟

كنت أطرد هذا الخاطر من ذهنى لأنه كان يشعرنى بسقوطها، وهذا الشعور كان يثير حنقي عليها.

كنت أريد أن أربأ بها عن هذا التفسير لأنه شىء يضايقنى أن أحس أن امرأتى بها هذا الضعف الطينى، وبالرغم من أن هذا الضعف طبيعى فى نهاية الأمر سواء كان اسمه ضعفاً أو شبقاً أو أى شىء آخر، إلا أننى فى قرارة نفسى – وبمنتهى الصدق - لم أستطع أبداً أن أغفر لها.

كان على - في المقابل - أن أجد مبرراً آخر غير منتَقد من وجهة نظرى.

أرجعت حبها له فى البداية إلى طمع النساء الطبيعى فى المظاهر المادية ومتطلبات الحياة الرغدة، ثم ولم لا؟ كلنا عندنا نفس هذه الرغبة أحياناً أو على الأحرى دائماً ، إذن ليست هذه بالسقطة.

هل كنت أبحث لها عن سقطة أم عن مبرر نقى؟ لماذا إذن كانت تحبه؟

كانت تحبه لأنها كانت تحبه؟

كفى.

هل كانت تحبه لما كان يتركه فى نفس من يقابله من إبهار فى الحديث؟

ربما.

هل بسبب لكنته الأجنبية قليلاً وتلعثمه فى بعض الكلمات الصعبة عند الحديث بالعربية؟

أو ليس هذا سبباً كافياً ليكون مغرياً جذاباً وغير مكرر؟

العيب الأساسى فى رأيى ليس أنها أحبته، بل لأنها سمحت بمرور كل تلك السنوات من عمرها من أجله، ودون معادلة سليمة توحى بحياة مستقرة.

لكن منذ متى كانت للبشر السيطرة على قلوبهم؟

ألم أفعل نفس الشىء معها؟

أغفر لها إذن؟

متى يكون ذلك؟

الآن؟

الآن وقد انتهى كل شىء؟

أفكر لماذا صبرتْ عليه كل هذه المدة؟

لم يكن المال هو المحرك الأول، وإذن يتبقى الحب والجنس، من الممكن أن يصنع الحب الجنس، ومن الممكن أن يصنع الجنس الحب، لكن السؤال هو: ما الذى بدأ أولاً؟

وما هذا الذى نصنعه الآن؟ ثم السؤال الآخر: لماذا لا نستطيع أن نتوافق كلياً عند ممارسة الحب؟ كيف يمكن أن لا يؤدى الحب إلى التوافق فى الجنس؟ ماذا يحدث؟ وما هو الحائل الذى يفصل بغلالة شفيفة ـ لكنها صلبة ـ بيننا؟

قالت لى مرة، ونحن فى قمة الإحباط، إنها قد تعودت على الطريقة هكذا، وإنه ليس ثمة وضع آخر يمكن أن يسعدها، روت لى أيضاً من قبل أنها كانت سعيدة معه فى هذه النقطة. هذا إذن ما كانا يفعلانه.

ولماذا لا أفعله أنا؟ لكن السؤال التالى منطقياً هو:

ـ ولماذا أفعله؟

فكرت كثيراً فى سبب كونها من النوع المتسلط من النساء فى الفراش ولم أعرف، لكنى أصبحت متأكداً –بمرور الوقت-من أننى كنت بارداً معها فى الفراش لهذا السبب؛ كلما أصرت على ما تحب أن تفعله أطعتها بغير حماس.

إذن لماذا بكت وشهقت فى المرّة التى عاملتها فيها بقسوة محسوبة؟

ربما لأنها هى التى طلبتنى، أحست بالضعف لما استشعرت أنا القوة فى نفسى فهجرتها يأساً ولم تكن تتوقع إنى سأصاب باليأس، ربما يكون هذا صحيحاً، لكن السبب الأكثر قوة هو أن السلطة لا تُمنح، بل تُغتصب.

نعم، كانت تريدنى مسيطراً وليس كريماً أو حتى متعادلاً.

أستطيع أن أسيطر على من لا أحبه، أما من أحبه؟

لهذا السبب أستطيع الآن ـ ربما ـ أن أخمن لماذا كانت تبكى بعد كل نشوة متحققة لها.

كانت تحس أننى أنظر إليها مندهشاً.

لمَ كان هذا الاحتفاء بالنشوة؟

ولماذا لا نستطيع أن نحققها سوياً؟

لماذا نظل متوافقين حتى بداية اللحظات الحميمة فنحس كأن سداً قد أقيم بيننا؟ وما هو هذا السد؟

ربما تكون عقدة نسمة من الإنجاب هى السبب؟

قالت لى مرة:

- يا سامح أنا كبرت فى السن، روح شفلك واحده تانيه تتجوزها.

يومها طلبت أن أمارس معها الحب لكنها رفضت بإصرار، وفضلت أن تبكى بمفردها.

لكن لا، إنه فقط خوفها من فقدان السيطرة، لو تزوجتها بدون أطفال سأصبح قليل الأدب كما قالت.

مرة أخرى قالت لى بعد أن افترقنا:

- عمرى ما حسيت إنك كنت ملكى لوحدى.

- عمرى ما حسيت إنى امتلكتك.

دائماً كان هناك جزء منك هارباً.

مرة أخرى قالت لى بعد أن تحققتْ وبكتْ:

- باحس إن انت بتتفرج عليّ.

وعندما راحت فى إغفاءة على ساقى إطمأنيت إلى أنها لاتقرأ أفكارى، فاعترفت بينى وبين نفسى مرة واحدة إننى أكرهه من كثرة ما بكيت هى بسببه، وأكرهها قليلاً، ولنفس السبب.

٢٥

قابلت أمها مرة واحدة فقط في "سويس إير" فى الجيزة. كنت قد طلبت مقابلتها وكان ذلك فى بدايات العلاقة، الجو كان شتاء فى شهر ديسمبر، وصلت مبكراً من باب الاحتياط فوقفت فى الخارج أمام الواجهات الزجاجية للمحل، كنت أذرع المسافة ذهاباً و إياباً حتى وصلتا.

بعد سلام حذر دخلنا واخترنا منضدة بجوار النافذة المطلة على شارع الكورنيش، تحيات مقتضبة وارتباك صامت، بدت أمها باردة معى، أحسست بذلك لكنى كنت أعلم فى نفسى أنى متمرس فى فن الحديث إلى الآخرين، استعنت بتلقائيتى في الحديث بصدق عن مطالبنا المشروعة فى حياة بها سكينة.

جاوبتنى المرأة إجابة مازلت أعجب لها وأعجب بها فى نفس الوقت.

قالت:

- لابد أن تنطوى السكينة على سَكَن.

ولما كنت أعلم أن نسمة لا تحب أن تسكن فى شقتى بالمقطم انتقلنا إلى الحديث عن الشقق المؤجرة وأسعارها.

قالت لى المرأة أنها تعلم أن راتبى عادى وأنها تنتظرنى أن أبحث عن شقة مناسبة تليق بنسمة ثم أخبرها.

انتهت المقابلة بأن طلبت منى المرأة بيانات عن نفسى وعن أسرتى، اسمى الثلاثى كذا أسماء إخوتى ووظائفهم، آخر وظيفة لأبى وآخر وظيفة لأمى، عنوان بيتى فى الإسكندرية والقاهرة، وظيفتى الحالية واسم شركتى وأسماء أصحاب الشركة، طلبت أن يكون كل ذلك مكتوباً. ابتلعت إحساساً كبيراً بالإهانة لكنى صممت على تجاوزه بالرغم من أنى لم أستطع أن أعرف أين وجه الخطأ فى الطلب، هل كان الخطأ فى طريقة الطلب أم فى توقيته؟ أم فى مضمونه؟ قلت لنفسى ربما كانت هذه هى الطريقة الأكاديمية فى مثل هذه الحالات.

بينما كانتا تودعاننى مغادرتين المائدة التفتتْ إليّ أمها قائلة:

- أنا ارتحت لك.

كأنما رفعتنى من الأرض إلى السماء بهذا القول، لكن بما أنه من المنطقى أن يكون بعض من أسلوب نسمة فى الحديث وراثياً، فقد أردفت الأم بعد أن تباعدت بمسافة مترين:

- لا تنس.. البيانات مكتوبة، أرسلها إليَّ مع نسمة.

أوصلت نسمة أمها إلى البيت ثم حادثتنى على المحمول، علمت منها أن أمها جاءت بنية أن

"تفركش" الجوازة على حسب تعبيرها، وأن ما حققته أنا يعتبر من قبيل المعجزات.

قالت:

- اللى انت عملته ده كان "Presentation" هايل، كان من المستحيل إنى أتصور إنك تنجح مع ماما، دى كانت جايه مصممة على" الفوركيشه"، إنت فين يا حبيبى؟

- أنا فى المهندسين، تعالى.

- بتسكر؟

- فرحان، يللا تعالى.

- جايّالك.

كنت مشتاقاً إلى سماع التفاصيل.

انتهيت لتوى من محادثتها بالتليفون، قلت لها إننى ذهبت أمس إلى الشيخ عليّ.

- وبتعمل إيه فى اسكندرية يا شقى؟

- أوصَّل الأسرة كما هى العاده، الصيف بدأ.

ضحكت.

- آه، رحلة الشتاء والصيف.

ضحكنا.

- وبعدين؟

قلت لها إنى رأيت شاباً وزوجته كانا جالسين مكاننا إلى البار، وكانا فى حالة من السكر الشديد، كانا يتعاتبان بشدة، واتفقا تقريباً فى النهاية على الطلاق.

بدأت أثير فضول نسمة.

- وبعدين؟

- وبعدين كلمتهم، قلت لهم إنى سمعت كل الحديث.

تضحك نسمة.

- يا حشَري.. وبعدين!

- قلت لهم إننا كنا فى نفس المكان من سنة، بس انفصلنا.

لم أقل لها إننى أخبرتهما أنى ما زلت أحبها.

الزوجان الشابان لديهما بنت.

قالت لى نسمة بصوت أدرك مراميه:

- قول لهم يعقلوا، ويجيبوا للبنت أخ يتلخموا فيه.

ثم غيرت مجرى الحديث:

- سمعت الأغنيه الجديدة بتاعة شارون؟

- لا. مين غناها؟

- واحد جديد اسمه شعبان عبد الرحيم، افتكرتك وقتها لمَّا كنت بتقول لى إنى:

"ولا شارون في زمانه".

- هل قلت لك كده فعلاً؟

- أيوه، آخر خناقه.

تذكرت فعلاً أنى قلت لها ذلك، ولذلك فبعد أن قطعنا الاتصال كتبت لها رسالة على المحمول:

ـ كنت قاسياً عندما قلت لك ذلك.

لم أقل لها أنى مازلت أحبها، فكرت أنه ما جدوى القول مادامت تعلم.

في الـ "Town House " كنت حاضراً ندوة شعرية عن صلاح جاهين.

أعجبنى – من ضمن ما أعجبنى - قول جاهين عندما كان ينعى بيرم:

- النعش يغرق فى الدموع فى عينى.

تذكرت لما كنا نجلس في "الخن" أنى كنت أهب واقفاً عندما تبلغ بى النشوة أقصاها، أنشد رباعية من رباعياته، كل مرة أنشد رباعية مختلفة حسب مقتضيات الحوار .

لم أكن ألحظ عليها الاهتمام الجدّى بما أقول، فقط الإنصات والابتسام، كنت في البداية أندهش من فتور الاهتمام، لكنى بعد فترة استطعت ملاحظة أن تذوقها الأدبى ربما ليس بنفس تميز صفاتها الأخرى.

أبتسم الآن عندما أتذكر مرة اعترانى فيها الوجد فوقفت ممسكاً بزجاجة البيرة فى يدى اليسرى، رافعاً يدى اليمنى إلى أعلى، أنشد لها من كلام جاهين:

أنا اللى بالأمر المحال اغتوى.

شفت القمر نطيت لفوق فى الهوا.

طلته.. ما طلتوش.. و إيه أنا يهمنى.

مادام بالنشوه قلبى ارتوى.

مازلت أذكر كيف جاء الرد هادئاً:

- أهو صلاح جاهين ده اللى جايبك ورا.

٢٨

تذكرت عندما كنت عارياً وفى يدى الزجاجة العاشرة، كيف خلعت ملابسى أمامها قطعة قطعة، وهى جالسة إلى الكنبة تضحك وتفرك قدميها، خلعت كل ملابسى وبدأت أرقص والزجاجة فى يدى، وكلما حاولت الشرب تنداح البيرة على صدرى.

أوقفت الرقص وسألتها إن كانت تريدنى، بدلت حرف الزاى ذالاً.

ـ عاوذه؟

وهى تضحك ويلتوى عنقها إلى الوراء وتختلط القهقهات بالزجاجات المتراصة فى كل مكان، ويختلط كل شىء بأى شىء.

قالت لى بأنها لم تر من قبل رجلاً مثلى متحفظ المظهر فى حالته العادية، متهتكاً خليعاً بهذه الصورة فى حالة السُكر، أعود إلى الرقص وأغنى لمصطفى قمر.

٢٩

من يستطيع إيقاف إحساس الألم الجارف بفقدان نسمة؟

أعرف كيف ينقلب الحزن الشفاف إلى حزن أسود موغل فى القتامة. خبرت هذا عندما دعتنى نسمة إلى سهرة في الزمالك بمناسبة عيد ميلادى الأربعين، ياله من رقم يوحى بأنى قد فعلت شيئاً كبيراً، والحقيقة إنى حتى لا أسير، الزمن هو الذى يمضى.

لم تخبرنى بسبب العزومة، لكنها فقط قالت:

- عازماك.

وصوتها الغنوج يتراقص فى أذنى ويهمس بالسبب.

لكنى لم أشأ أن أفضح ترقبى للعزومة.

على أية حال كان صوتى هو الآخر يتراقص مبتهجاً.

ها هى نسمة تتذكرنى، شهور من الفراق لم تنسها عيد ميلادى، حادثت نفسى بأنى لا أزال أمثل لها شيئاً كبيراً أو أشياء، وكنت فى أوقات التفاؤل موقناً بأنى بالنسبة لها كل شىء.

فى "المكان" لا يستطيع أحد الدخول دون حجز، ولم تكن نسمة قد حجزت ذلك اليوم، لكنها كانت مؤمنة وأنا أيضاً بأننا عندما نكون معاً، فإننا نمتلك سحراً للقبول الاجتماعي غير مسبوق، كان لنا – ونحن معاً – بريق طاغ وكاف لنكون استثناء، ومعنى ذلك أننا قررنا الدخول فى ذلك المكان يوم خميس بدون حجز.

أذكر محل الملابس الذى دخلناه لتنتقى لى بعض الملابس، وكيف التف حولنا معظم العاملين ضاحكين، حتى إن صاحبة المحل أعطتنا موزة وبعض فصوص البرتقال.

لعلك تذكرين ذلك يا نسمة.

كنا منفصلين منذ أشهر، لكن هذا شيء آخر لا علاقة له بوجودنا معاً.

اقتربنا من الباب إذن، ورأينا رجال الأمن واقفين، تظاهرنا بأننا منهمكان فى المناقشة وعبرنا الباب فلم يوقفنا أحد.

المكان مزدحم بنساء شهيات، عطور جميلة ، "البيست" أيضاً مزدحم والمقاعد تحمل أجساداً جميلة عطشى لبلوغ الذورة من متعة الحياة.

رأيت صديقتها ذات النسب الرفيع ترقص وحولها خمسة من أصدقائها الرجال والبلوزة مرتفعة عن البنطلون بسُمك إصبعين. قد يكون هذا شيئاً عادياً، كما أنه من العادى أيضاً أن تكون عائلتها مشهورة وقوية إلى الدرجة التى جعلت نسمة ترفض أن تبوح بلقب عائلتها لى، لكن الذى ليس من

العادى أن تجىء إلى المكان كل خميس وعلى منضدتها خمسة من الرجال تعزمهم جميعاً، وهذا يتكرر كل مرة، رأيتها بعينى مرتين فى أسبوعين متتاليين وهى تطلب الشيك ثم تدفعه، وفى الحقيقة فإن نسمة هى التى لفتت نظرى فى البداية، وقالت لى إنها من أسرة كبيرة جداً، ولما طلبت أن أعرف اسم أسرتها رفضت بالرغم من إلحاحى.

كانت تلك إحدى فضائل نسمة.

فقط قالت لى أنها كانت صديقتها فى المدرسة.

على "البيست" أحاول ضم نسمة إلىّ وهى تدفعنى بعيداً.

لا زلت أذكر وجهها كيف بدا عندما انفلتت منى، كانت عابسة، وكان على وجهها علامات اليأس من إمكانية أن نستطيع التواصل بعد ذلك، كنت قد حاولت أن أصل بشفتى إلى رقبتها ونحن نرقص، حاولت استعادتها بالوصول إلى مراكز الإحساس، وكأى سكران حاولت بعنف قليلاً، وكانت تراوغ وتبعد رقبتها، لكنى كنت أشعر أن الحصول على رقبتها يعنى الحصول على إحساسها، مما يعنى الحصول عليها بعد ذلك، أفلا تستحق نسمة هذه المحاولة؟

ثانية أحاول دافعاً ظهرها من الخلف كى تكون مساحة ابتعادها هى فقط مسافة ثنى الرقبة إلى الخلف وليست مساحة التحرك بالجسم.

تحركت بعيداً عنى بعدما دفعتنى بقوة ووجهها يبدو عليه الحزن، وهكذا انتهت الليلة.

ها هو الحزن الشفيف قد أصبح سوداوياً قاتماً.

تركتْ "البيست" ورجعتْ إلى البار، وقفت وحدى برهة ثم تبعتها.

واقفان نحن حول البار، شربتُ كثيراً لكنها لم تشرب تلك الليلة، كنت أفكر أكانت تحتفل بعيد ميلادى أم جاءت لتقتلنى؟ أو لتشاهدنى وأنا أموت؟ وددت لو أقتلها. كلما عاودتنى الرغبة فى قتلها أمعنت فى الشراب كى أقتل نفسى، كنت لا أعلم لماذا تركتنى، أمن أجل قسوتى؟ أم من أجل إهاناتى؟ من أجل عائلتها؟ أمها؟ أبيها؟

لطالما أحببت عائلتها كثيراً بالرغم من كل شىء، لكننى الآن فى أزمتى، وأزمتى يحلها الكأس العاشر، آخذها إلى الرقص ثانية لكنى لا أجد بها نفس الروح.

أعرف أنها تقتلنى، أعرف أيضاً أنها تحاول الخلاص منى، تقتلنى داخلها، وأنا أذبح نفسى على مرأى منها ومسمع، وددت لو أمسك بها وأصيح فى وجهها:

- من لي سواك؟

بقية من اعتصام بكبرياء تقتلنى أيضاً.

اليوم أنا محكوم عليَّ بالقتل فى عيد الميلاد.

ومادام القتل محتوماً، فلأميت هذا العقل الذى يدرك ذلك، لا لن يختارنى القتل بل أنا الذى سأختاره، بعض أصدقائها على البار، نتبادل الحديث المعاد اللذيذ، الذى لا معنى له والذى لا يمكن أن يكون له معنى إلا فى هذا المكان الذى بدأت تنخفض كثافته، شىء مثل الفجر البغيض يقترب ولم أصل بعد إلى أية نتيجة لأى شىء.

خرجنا بعد ما دفعنا الحساب، فى السيارة رفضتُ دفع أجر المنادى كاملاً، أعطيته جنيهين فقال بكل صلف:

- يبقى فاضل تلاتة.

أتذكر أنها قالت شيئاً فرددت:

- أنا غير ملتزم بمنطق منادى سيارات.

عرضت علىَّ أن تقوم بالقيادة بدلاً منى، سببتها بأمها وأوصلتها إلى البيت.

الطريق إلى المقطم فى يوم كهذا بدا طويلاً وحزيناً حزناً أسود.

ما زاده مشقة إحساسى بالعدمية وبالفقد النهائى، ذلك الإحساس الذى تنامى حتى إذا صعد إلى ذروته ضعفت يدى من على عجلة القيادة، ففقدت رغبتى فى الصعود كما فقدت رغبتى في الرجوع، فقدت أيضا رغبتى في البقاء في المكان أو في الذهاب إلى أى مكان آخر.

الإغفاءة القصيرة التى سببها السكر كانت سبباً كافياً لكى تصطدم السيارة بالرصيف فى أول النفق المؤدى الى "صلاح سالم"، صعدت السيارة فوق الرصيف بقوة ثم نزلت ثانية، أكملت الطريق يقظاناً منتبهاً عندما بدأت أسمع أصوات أسفل السيارة، أيقنت أن الكاوتش بدأ في التمزق وإفراغ الهواء، لكنى تجاهلت الموضوع لأنه لم يكن هناك أى حل إلا الإسراع.

أخذت طريقي صاعداً مطلع هضبة المقطم بأقصى سرعة ممكنة لأنى كنت مدركاً أن الوقت الباقى لى ليس كبيراً.

أوقفتنى سيارة ميكروباص في المنطقة المنبسطة من المطلع، رأيت جميع من فيها يشير لى فوقفت، أخبروني أن "طاسة العجلة" قد انفصلت وأنها تأخذ الطريق العكسى نزولاً .

هل هذا وقت الاهتمام بأشياء صغيرة تافهة وترك القضية الكبرى؟ تلك القضية التى لم تعد حتى فقدان نسمة بل أصبحت كيفية الوصول إلى البيت؟ ثم أيكلموننى عن الطاسة وأنا أسير بثلاث عجلات و"كاوتش تيوبلس" يتمزق؟

أشياء صغيرة تافهة لا أتذكرها، لكن الذى أذكره بوضوح أن السيارة توقفت تماماً في شارع ٩، نزلت منها وأغلقت الباب، كانت السيارة مائلة ناحية اليسار بشدة، وكان هناك مكان الإطار قطعة حديد مضعضعة.

بعد أن افترقنا صرنا نتقابل فى أماكن أخرى غير تلك التى اعتدنا التردد عليها، التقينا عدة مرات فى "دابافو"، وهو بار خشبى قديم فى المهندسين، ثم بدأنا نغير طبيعة الأماكن التى نذهب إليها، فأخذتها مرة إلى " الجريون" وكنت متوجساً مخافة أن لا يعجبها المكان، ولدهشتى فإنها هامت إعجاباً به ونحن جالسان فى الصالون الداخلى حتى إننى أذكر كلماتها بالنص، فقد قالت لى إننا أخيراً وجدنا المكان المناسب لنا، فالمكان يبدو عليه انه ملتقى الفنانين والمثقفين من الطبقة المتوسطة.

قلت لها:

ـ كنت بفكر فيكِ النهاردة لمَّا فتحت راديو العربية فسمعت أغنية "قصص الحب الجميلة" إللى بتغنيها نجاة، فاكراها؟

ـ لسه بتفكّر فىّ؟

أطرقت ولم أجب.

و ل"قصص الحب الجميلة" هذه قصة، فقد كانت هى الأغنية التى تفضلها، وعندما أسمعتنى إياها لأول مرة لم تعجبنى، لكنى بدأت أسمعها منفرداً بعد ذلك فبدأت فى تذوقها. لكن مما لا شك فيه أن حبى لنسمة كان له أثر ملحوظ فى ذلك، على أية حال هى أغنية ناعمة اللحن وعذبة الكلمات وكانت نسمة تشير بها دائماً إلى قصتنا.

أحبت نسمة أيضا أغنية "روحى و روحك" وذكرت لى أنها غنتها فى الأتوبيس عندما كانت فى رحلة أيام الجامعة، ولدهشتى فإن نسمة كانت خجلى وهى تغنيها لى فى السرير.

وبمناسبة الموسيقا فإنى ما زلت أذكر الفترة التى أحضرت فيها العود ووضعته فى بيتها وكنت أغنى لها أحياناً بينما تعمل على الكمبيوتر، أو أجلس إلى "الفوتيه" بينما تتمدد على "الكنبة".

فى يوم من الأيام غنيت لها "حانة الأقدار":

حانة الأقدار، عربدت فيها لياليها.

هذه الأزهار، كيف يسقيها.. وساقيها بها مخمور، كيف يا ساقى.

كانت تنهى أعمال الكمبيوتر، وبينما كانت تهم بالوقوف سمعت البيت الأخير فصاحت:

ـ أهى دى الأغانى بتاعتنا، الناس فى الشغل وفى كل حته بيسمعوا حاجات غريبه، قليل "أوى" اللى بيسمع الغنا الأصيل دلوقتى، حبيبى غنيها تانى، أجيبلك بيره؟

ـ هاتى.

عندما أتت وجلست بجانبى وبدأت فى الغناء كنت أشير إليها برأسى عندما أصل إلى جملة "هذه الأزهار"، وكنا نضحك على المعنى فى "وساقيها بها مخمور"، فقد كانت تعلم أنى أتحدث عنها، وكانت تفرك قدميها بين الحين والآخر من السعادة.

أخذتها غير مرة إلى مركز الموسيقى فى المهندسين، وكنت أحضر حفلاتها باستمرار خصوصاً للفرقة الناشئة وقتها والتى كانت ترأسها صاحبة المركز ومديرته.

فى الحفلات كانت نسمة دائما ترغب فى الكلام حتى أثناء عزف الفرقة والغناء، كنت أعرف عنها هذا السلوك قبلاً ولذلك لم أشعر بالمفاجاة، لكن المكان كان صغيراً وليس مثل الأوبرا حيث يمكن أن تضايق فقط المحيطين بك إذا تكلمت، هنا ستضايق الفرقة نفسها، كنت حازماً معها بلطف فأشرت لها بما معناه ممنوع الهمس.

بعد فترة أخذت العود فجأة من منزلها وأرجعته إلى منزلى، نظرت لى نظرة ذات مغزى وسألتنى:

ـ رجعته ليه من غير ما تقوللى وانت عارف كويس إنك مش ح تعزف عليه فى البيت؟

لم تنتظر الرد، كانت فقط تريد أن تسجل الملاحظة وتقول لى أنها تعرف أنى أشعر أن بيتها ليس بيتى، يتسق هذا مع ما ذكرته فى موضع آخرعندما قالت لى بأنها لم تحس أبداً بأنى ملكها أو أنى "كلى لها"، وأنها كانت تحس دائماً بأن هناك جزءاً هارباً منى.

عندما تقابلنا فى "الجريون" ثانية كان الوقت مبكراً جداً على حضور الناس فكنا وحدنا فى المطعم بالداخل، شربتْ كثيراً فى ذلك اليوم وذهبتْ إلى الحمام مرتين، وفى كل مرة كانت تعود وتجلس كانت تقول لى:

ـ الميه غَرَّقت رجليَّ، الشطافه دى بايظه.

ثم تمسح قدميها فى السجادة.

كانت ترفض بعد افتراقنا أن تضع ذراعها فى ذراعى عندما نخرج من الأماكن على أساس أن هذه الحركة حميمية وستذكى لدينا الإحساس الذى نخافه، لكنها فى ذلك اليوم سمحت لى بهذه الحركة، بل سمحت لى باحتضان يدها فى السيارة طول الوقت، وبتقبيلها أيضا عندما وصلنا إلى البيت.

وبالرغم من أنى كنت موقناً من الفراق إلا أننى كنت أبحث دائماً فى عينيها – عندما نلتقى ـ عن أثر لليالى الحب، أما هى فكانت تجاهد دائما فى إخفائه لتغلق الطريق على مزيد من الآلام، وتنظر فى الوقت نفسه إلى عينى ترى فيهما لهيباً صريحاً لا مواربة فيه.

لم اكن أقو على مواجهة أى رفض جديد فقد كان قلبى مملوءاً بحزن أزرق اللون شديد القتامة

كلون مياه البحر فى ليل الشتاء، ورغم ذلك كنت أدرك أنى ماض – بالضرورة - إلى نهاية ما بطريقة ما، وأن المشهد الختامى سيظل مجهولاً حتى آخر لحظة.

أهذه نسمة التى أوصلها إلى منزلها؟

كان من قبل منزلنا، والآن عاد إليها.

ألم يعد بإمكانى أن أفتح تلك الستائر البيج أو أن أغوص فى الكنبة ذات المقعدين؟

هل تحرمنى من كل هذا استعلاء؟ هذا ما ظننته في البداية.. أو ربما هكذا كانت تشعر فى البداية، غير أن تراكم الزمن وخفوت الأصوات وهدوء الأنفس أفسح المجال للحقيقة أن تظهر شيئاً فشيئاً كما يظهر جبل الجليد فى البحر.

من الاستعلاء إلى العتاب القاسى إلى الخافت، ومن الخفوت إلى قطرة الشوق المكتومة إلى نظرة الشوق المبرح إلى الهوى الذى يندلح إلى همسات الصوت في التليفون ثم إلى تحاشى اللقاء عندما نحس أننا قد بلغنا آخر حدود الأمان.

أعرف هذا الشعور اللذيذ وأعرف متى تعانى منه نسمة ولا أضغط عليها إذا بلغْتُهُ لأنى كنت أحترم فيها إرادتها وأحترم ميلها إلى الابتعاد وإيثار سلامة مسار الحياة، حيث لا سنها ولامركزها عادا يسمحان بهرطقات حب كحبنا، وكان يكفينى ظل ابتسامتها الوارفة عندما أشعر بأننى وحيد.

لم أغادر موقعى عندما أوصلتها إلى منزلها، تركتها تصعد وقلت لنفسى إنى سأغادر بعد أن تشعل النور.

عندما أضىء نور غرفتها بعثتُ إليها برسالة على المحمول:

- سأحبك إلى الأبد، وبدون أى التزام آخر.

أرسلت لى الرد بينما كنت أقود السيارة فتوقفت لقراءته.

- إنت مجنون رسمى.

أعجبتنى كلمة "رسمى" هذه، وحزنت كثيراً عندما تم مسح هذه الرسالة من الموبايل بطريق الخطأ.

٣١

في رمضان الثانى بعد الفراق، مازلت لا أعرف اسمى وذاهل عن هويتى، معتكف فى معبدى، لا ألوى على شىء، لا أرغب فى الحديث وغير قادرعلى التواصل.

قادر فقط على الاختباء، أحياناً أحضر ندوات شعر، حفلات موسيقى، أو أفلام سينما، أو أذهب إلى وسط البلد حيث اعتدت السهر مؤخراً بعد هجرى لكل الأماكن التى اعتدناها. لا أرغب فى أن أقابل أحداً يعرفنى، سأعرف أنا أشخاصاً جدداً عندما أكون قادراً على التواصل.

تآلفت بعض الشىء مع إحساس الفقد، لكن ليس معنى ذلك أن ثمة إحساساً بالسعادة يتسلل، فإدراك السعادة بدون نسمة لايزال شيئاً خيالياً، بعيد المنال كإيمان شيطان.

٣٢

لم اقترفت ما اقترفت يا شيخ على؟

خدعتنا.

أغويتنا.

أوهمتنا بأنك باق للفجر.

روجت لنا بأنك قطب الأقطاب، وبأنك المنتهى.

ثم ونحن فى وسط الطريق انسللت.

ثم ونحن فى وسط البكاء صرت تضحك غير عابىء.

من قبل أن أراك أبداً كنت عنك دائم البحث.

لكنى لم أكن أعلم أنك ساحلىّ المكان.

ذات يوم صحبنى مُريد إليك.

وفى رحابك تعرفت على الطقوس والأتباع.

وشربت كأس العطش الأبدى.

مكانك مكتظ يا شيخ على.

وجوه من كل لون.

ملابس من كل هيئة.

وكل الألوان توزعت على الأبواب والجدران.

والموسيقا...

من هنا موسيقا أوروبية.

ومن هنا عود يغنى من المقام الرصين.

وعلى المرايا صورتنا معاً.

وزجاجات.

وعلى الرخام الوردى طفايات سجائر.

وولاعات.

ومفاتيح سيارات.

وعلى أنغام العود تهتز أجسادنا فتلتصق.

ويسرى الخدر.

حتى يمتنع الحذر.

الكل يغنى.

لكن ليس بالضرورة من نفس المقام.

يبدو أنه لا فائدة من الحديث معك.

أنت لا تريد أن تصدقنى القول، ولا أصل معك إلى نتيجة.

بل كلما أوغل معك فى الحوار تتبدد الرؤية.

ويصير المنتهى وهماً.

مثل كل شىء عندما يبدأ.. يكون ظاهره كالحقيقة.

ثم ينتهى إلى لا شىء.

٣٣

هي بثوبها الأسود المفتوح من الجانب الخارجى لساقها اليسرى، لم أسهر من قبل مع امرأة بهذا الجمال، ولذلك كنت مرتبكاً قليلاً عندما جلست بجانبى وانكشف ساقها بلونه الخمرى ولم تغطّه، ركنت السيارة فى جراج فندق سميراميس وصعدنا إلى الفندق.

رقصت أنا ونسمة في ذلك اليوم بعدما أوغل بنا الشراب فى أدغال النشوة.

- قوم رقصنى.

أخذتها من ظهرها، نتقدم نحو "البيست"، نرقص على موسيقا لكنها موسيقا خاصة بنا ليس لها إيقاع إلا بداخلنا، الآن عطرها هو الذى يراقصنى لأنه فى كل صدرى وهى ملتصقة بى، يداى على خصرها ويداها حول رقبتى، وأحياناً تكون على صدرى، يداى ترتفع من خصرها إلى ظهرها، وأحياناً تنزلان إلى ما دون الخصر، تلتصق نسمة بى أكثر، أحس بساقها أحياناً، ثم دائماً بين ساقىّ، أجد نفسى أفيق بالتدريج إلى ما أحصل عليه في تلك اللحظة، وأجدنى مثل قطار لا يعلم من غريزته إلا المضى قدماً.

استدارت، التصقنا ثانية، ثم احتضان حانٍ، أقبلها على كتفها، لكنها تفيق عندما تلامس شفتاى رقبتها الناضحة بعرقها الجميل، تبتعد، تنظر إليَّ نظرة فيها عتاب وشىء من سعادة، يتوقف الرقص وتطلب نسمة من المطرب الميكروفون، أحاول إثناءها لكن بلا جدوى، أمسك الميكروفون وأغنى:

- "أمانة عليك يا ليل طول، وهات العمر م الأول".

وكل ما كنت أملكه من الدنيا وقتها لم يكن يساوى اللحظة.

صفق شباب سن العشرينيات الذين كانوا يملأون المكان، سلمت الميكروفون ورجعت أحتضنها، وأمسح على شعرها، وأمسح قطرات العرق من على جبينها، وبعض قطرات العرق كنت ألعقها.

كنا وحدنا على "البيست" فى حال.

ليس بعد الصعود إلى القمة إلا النزول منها، مزيد من الكؤوس جعلتني أرى وجه "صادق" فى الفراغ بداخل الزجاجة، كان ذلك عندما بدأت تتحدث عنه وحيث بدأت أولى العذابات.

بدأت تبكي بلا توقف، طلبت لها كأساً آخر محاولاً أن أنتقل بها من محطة الحزن النازفة، أمسح

دموع عينيها وأربت على ظهرها، أحاول أن أعطيها طاقة لكن ظلت غزارة دموعها أسبق وأغزر، وأنا أحتمل.

رفعت رأسى فوجدت المكان خالياً، والعمال ينظفونه ويرفعون الكراسى، هذا المشهد تكرر كثيراً فى علاقتى بنسمة، فقد كنا فى أغلب الأحيان آخر من يغادر.

حدث هذا فى "بكين" و"موروكو"، و"السيلر" على الأقل.

آخر مرة حدث فيها هذا كانت فى عيد ميلادى الأربعين، فى ذلك اليوم انبثق الفجر وكنا لا نزال بداخل السفينة على نيل الزمالك.

أقود السيارة بأبطأ سرعة ممكنة ورأسها على صدرى، أعبث بشعرها وهى أحياناً كانت تقبل يدى، وبعض السائقين كان يرمقنا.

يومها ذهبنا إلى حلوان ثم رجعنا، كانت تريدنى أن أقبلها، ولم أستطع أن أفعل ذلك إلا فى المعادى حيث تسكن.

٣٤

ضربتنى بيدها ضربة مداعبة خفيفة ونحن نائمين فى سريرها الأبيض ذى المخدات الصغيرة البيضاء والملاءة البيضاء النظيفة، كنا قد آوينا إلى الفراش بعد ليلة من ليالينا الطويلة فى "بيكين"، رقصنا حتى الثمالة، وكانت هى التى تشدنى من يدى فى كل مرة ترغب فيها بالرقص عندما تعجبها أغنية ما، آخر رقصة رقصناها كانت على أنغام أغنية "حكايتى مع الزمان"، كان كل من فى المكان قد أنهكهم التعب فاستراحوا إلى أماكنهم وبقينا وحدنا نرقص على "البيست".

كان الآخرون ينظرون إلينا لكنى لم ألحظ ذلك وقتها لأنى كنت أريح وجهى على رقبتها الخمرية الرطبة.

لم أنتبه عندما انتهت الموسيقا فبقيت مستمراً فى احتضانها، أفقنا على حدوث تصفيق آت من بعيد، نبهتنى إلى أنه تصفيق الحاضرين، نظرنا فوجدنا جميع الزبائن تصفق لنا، حيينا الحاضرين ونزلنا إلى حيث كنا نجلس وكانت تهمس لى بفرح:

- دول بيصقفوا لنا.

أذكر أنها قادت السيارة بدلاً منى لأنى كنت منهك القوى وغير قادر على القيادة، لا أذكر كيف صعدنا السلالم، لكنى أذكر أننا عندما أغلقنا باب الشقة وقفنا فى عناق محموم وقبلات رطبة، ثم يغيب عنى المشهد بعد ذلك إلى أن ارتميت على السرير وهى بجانبى، فردت يدى اليسرى بمحاذاة المخدة، ورقبتها فوق ذراعى ووجهها فى صدرى، والغطاء الرهيف ينسحب على جسدينا، وكوعى مستند بأسفل ظهرها، وكف يدى مفرود ما بين عظمتى ظهرها من أعلى.

استغرقت دقائق فى النوم، وكان الأمر يبدو وكأنه لاحب اليوم، لكن الدماء اندفعت بالتدريج فى جسدى، واستمرت فى الاندفاع حتى لم يعد ثمة شك فى أننى يقظ.

كنت أظنها قد راحت فى النوم فلم أشأ إيقاظها وهى منهكة القوى، قلت لنفسى إذا كانت نائمة فلا بأس سوف أتعلم النعاس سريعاً.

بدون مقدمات فاجأتنى بضحكة عذبة، ضحكت وهى تخبطنى برفق ما بين فخذى.

- دي اسمها قلة أدب، فاهم؟.. دى قلة أدب.

فى تلك الليلة ملأت ضحكاتنا المكان بدون أن نمارس الحب.

٣٥

كانت كلما تشرب تقول لى أنها لن تستطيع أن تنجب والأفضل أن أتركها. عندما قالت لى ذلك ونحن في "بكين" المعادى قلت لها:

- إنت كفايه.

رددت مطرقاً، ليس رد الواثق بل رد المستسلم للقضاء فهل كانت لهجتى متعمدة؟

هل أردت أن أوحى إليها بأن فى ذلك تضحية من جانبى؟

وماذا كنت أنتظر؟

هل تترك هذا الجميل طوقاً فى رقبتها طول العمر؟

مَنْ؟ نسمة؟

قالت لي ترد رغبتى الحائرة:

- لا يا سامح بلاش عشان خاطرى.

- ليه؟

- قلت لك قبل كده.

لم أرد. أردت أن أفكر فيما تقول، خفت أن يكون ما قالته صحيحاً.

وحتى لو كنت قد أقسمت أكانت ستصدقنى؟

هي لا تصدق بسهولة منذ أن صدَّقتْهُ واكتشفت الخداع.

بل لقد فقدتْ جزءاً من ثقتها بنفسها، فعندما كانت صديقاتها يحدثنها عنه ويبدأن فى سرد مغامراته لم تكن تصدق، وكانت لا تنصت إليهن.

لم أرد عليها وآثرت أن أفكر، كان هذا اللقاء فى الأسبوع التالى لفراقنا حيث اتفقنا أن نلتقى ونتناقش بعقلانية فى الموضوع.

وكان الغالب على تفكيرى وقتها أننى لن أستطيع العيش بدون أطفال، لكن ها أنا رجل وحيد فى الثالثة والأربعين ولم أتزوج بعد.

يبدو أنها قابعة فى الأعماق.

وأنها كتمثال رومانى تحت مياه الميناء الشرقية، مرور السنين يجعل استخراجه أصعب ويجعل ثمنه يفوق أية قيمة أخرى يمكن إدراكها.

لم أشا أن أقول لها أنها أغلى من الحياة ذاتها.

لم أشأ أن أضعها فى موقف ضعف، لأنى أعلم أنها تكره ذلك حتى معى، لذلك لم أصر أبداً على أننى أريدها بدون أطفال، ستخاف نسمة القيصرية أن تفقدنى عندما يتقدم العمر، وربما قبل أن يتقدم. أنأى بها عن أن تخاف وهى التى أضاءت حياتى، فضلت أن أضعها دائماً حيث تحب أن تكون، بالرغم من أن صوتها يجىء دائماً عبر التليفون يائساً مستغرباً متحيراً يغالب الوحدة ويئن من جمال الذكريات المبتعدة.

لكنها نسمة تأبى إلا أن تكون قوية.

٣٦

توقفنا عن ممارسة الحب فى رمضان، نزلنا يوماً إلى الزمالك وقالت لى أن هناك مفاجأة فى انتظارى، اشترت من المحل القريب من شارع ٢٦ يوليو صينية من الفخار وفنجانين للقهوة، تركتنى أختار الألوان فاخترت الأزرق السماوى، وقالت لى:

- أحب أعمل لك القهوة بإيدى.

حكت لى عن صادق وكيف أنه لم يكن يشرب القهوة أو السجائر، وأنها طالما تمنت أن يكون زوجها صاحب كيف.

- كان بيشرب؟

- لا، كان بيقول لى دايماً إن الخمرة حرام، لكن كان بيشرب بس فى المناسبات أوالاحتفالات لما يكون الشرب ببلاش.

كانت نسمة ليبرالية، وكان هذا موضع خلاف خفى بينى و بينها، لأنه فى رأيى لا يصح أن تكون الزوجة ليبرالية أكثر من الزوج، لكن ربما كان العكس ممكناً، ثم إن هناك تفكيراً دينياً قابعاً فى أعماقى مهما بعد الظاهر من الأمر.

كنا فى "الخن" ليلة رؤية هلال رمضان، قلت لها إننى لن أشرب اليوم لأنه من الممكن أن يكون هناك سحور وهو ما لا يستقيم مع الشرب.

الواعز الذى لا أذكره لنسمة إلا بشىء من الشعور السيء هو إلحاحها على بالشرب إلى أن تتضح الرؤية، لما قالت لى ذلك نقمت عليها لكنى لم أشا إظهار ذلك، فلقد كنا فى بدايات العلاقة وكان عندى أمل فى أن أستطيع تغيير مسار حياتنا بكثير من الرفق.

- اشرب عشان خاطرى.

- طب شفطه واحده.

شربت فسمعت أغنية "أهلاً رمضان".

ثم إننا بعد انتهاء العلاقة، وبينما أنا فى الاسكندرية أحادثها عن الزوجين الشابين اللذين رأيتهما

فى "الشيخ على" تطرق الحديث عن بعض أمور الدين، فقالت لى إنها فى بداية علاقتها بصادق كانت تصلى وكانت تظل تدعو له "بالرجوع بالسلامة" عندما يسافر، لكنه أصبح ينام معها فى نهار رمضان وبالتالى لم تعد تصلى.

عندما سألتها ولماذا طاوعته فى ذلك قالت بصوت فيه إحساس بالخجل:

- كنت باحبه.

قلت:

- على فكرة أحب أقولك إن صادق ما علمكيش أى حاجة حلوه.

- صح.

قلتُها بنبرة ليس بها أى لوم.

أهذا مرتبط بحادثة رميها لكل زجاجات الخمر فى الحوض صبيحة زواجه؟

٣٧

هذه ملاءاتك يا نسمة التى أنام عليها والتى أهديتنى إياها بمناسبة الشقة التى رفضتِ الدخول إليها. لقد قلتِ لى يومها أنك تأملين أن تاتى الألوان متناسقة مع ألوان حجرة النوم الأرجوانية التى وضعتها فى شقتى بالمقطم.

أبتسم وأنا أتذكر ما قالته لى وهى تهدينى الملاءات.

- إوعى تتشاقى عليهم يا واد، دول ملاياتى.

ثم وضعت أصابعها على جبهتى وأنزلت يدها ماسحة على وجهى حتى شفتى.

أصبحت أخاف من الليل فأخرج كل يوم أبحث عن مكان جديد لأسهر فيه، مكان ليس به ذكرى لنكتة أو لدعابة ضحكنا لها سوياً.

لكنى قلت من قبل إن الضحكات يمتد رنينها بلا انتهاء، فتأتى إلى وأنا جالس وحدى فأضحك، وقد يرانى البارمان فلا أخجل، لو كان يدرى ما أراه لكان حسدنى، أما وهو لا يدرى من أمرى شيئاً فسيظل غريباً عنى.

أحياناً أذهب إلى مكاننا المفضل عندما أحتشد للقاء المكان، أفتقدها فى معظم الاحيان، حتى وإن تشاغلت بامرأة جديدة تجلس في آخر البار، عندما أتفحصها وأجد بها شيئاً ملفتاً أتخيل نفسى أحدث نسمة وأقول لها ما أراه، و أتذكر جملتها الشهيرة لى و هى تمررها بكثير من الهزار:

- ديل الكلب عمره ما يتعدل.

ولنسمة طريقتها الفذة فى قول كل الأشياء الصعبة التى يستحيل قولها للناس إلا بصدام معهم، كانت طريقتها تعتمد على تمرير الجملة بلهجة فيها الكثيرمن المزاح، فيتقبلها السامع كما سمعها كالهزار، ثم إذا انصرف إلى حال سبيله وفكر فى الكلام فسيجد فيه كل الجد.

و بعد يوم عمل شاق ما الذى يبقى لى عندما أعود إلى البيت؟ لا شىء إلا مشاهد تسخر منى، تجرى وتتقافز على الحوائط فى سرعة، تتواثب الذكريات كل وراء الأخرى، الأفراح وراء الأتراح، مشاهد صيفية مبهجة تأتي بعدها مشاهد شتوية باردة، كالكرسى الخالى بجوارى.

أتذكر قولها:

- هناك بعض قصص الحب التى لا يمكن أن يكتب لها النجاح بالرغم من أنها أجمل القصص، وقصتنا من هذا النوع، ذلك لأن حياتينا سائرتان في اتجاهين متقابلين، الاتجاه القادم من البداية والآخر العائد من النهاية.

ولقد كانت هذه من أكثر الكلمات التى قالتها نسمة إيلاماً على النفس.

٣٨

الفرق بين المرتين الرئيسيتين اللتين رأيت فيهما نسمة فى التليفزيون هو كما يلى:

فى المرة الاولى حاورها المذيع الشهير وكان يبدو عليها الارتباك وعدم التركيز، فكرت يومها فى أنها ربما كانت قد شربت الليلة الماضية حيث إننى لم أكن معها. تدفقت هى بالكلام فاصطاد لها كلمة من كلماتها وأخذ يستعرض قدرته على المناقشة والجدل حول معنى الكلمة وما إذا كانت صحيحة أو دقيقة من عدمه.

كانت نسمة تجلس على حجرى نشاهد شريط الفيديو وأنا جالس إلى الفوتيه فى صالون بيتها، لم نكن فى "الخن" هذه المرة بسبب أننا قد استسهلنا الجلوس فى الأنتريه حيث مكان الفيديو.

فى التسجيل كانت نسمة تجلس مظهرة جانبها الأيسر، وكان يظهر الفرق فى شعرها، وبانعكاس أضواء الأستوديو عليه كان يبدو أكثر كأنه صلع، ذكرت نسمة لى هذه الملحوظة مرتين لكنى قللت قدر الإمكان من أهمية الموضوع.

بعد انتهاء الشريط سألتنى نسمة عن رأيى فى المناقشة فأخطأت خطأى المعتاد معها: حاولت أن أكون موضوعياً ظناً منى أنها تبحث فعلاً عن إجابة، قلت لها إن اللقاء كان جيداً لكنها فيما بعد عليها أن تبتعد عن الأطروحات المتميزة مع مذيع مثل هذا، الأفضل أن تجعل كلامها "سادة" بلغة أهل الغناء، أى بلا "عُرب"، أى لا تخترع لفظة جديدة أو تعبيراً جديداً، تكتفى بالتعبيرات السائدة وتكون تقليدية قدرالإمكان.

اكتشفت أنى تقريباً أفسدت الليلة حيث قالت لى فوراً والغضب يعلو ملامحها:

ـ على العموم أنا شايفه إنه ما كانش فيه أحسن من كده.

ندمت على ما قلت لأنى أحسست ـ أو بمعنى أدق ـ اكتشفت أنها مثل أى إنسان عادى، مثلنا جميعاً لا نمتلك الثقة الكاملة بأنفسنا أو بأى شىء، ولا نستطيع بأى حال من الأحوال أن نستغنى عن الدعم النفسى من المقربين إلينا، وأنا الذى كنت أظن أنها تبحث عن تقييم موضوعى لأدائها فى البرنامج.

أصابنى الهم لأنى حينما أردت أن أقبلها امتنعت علىّ رغم أنها لم تمتنع أبداً من قبل عن التقبيل

حتى فى أثناء فتور العلاقة أو فترات الخصام.

بعد ذلك بثلاث سنوات أعود إلى البيت وهى ليست فى "أجندة" تفكيرى، أفتح التليفزيون على قناتى المفضلة فأراها أمامى، تجلس إلى يسار الشاشة لكى لا يظهر فرق شعرها.

كانت متألقة حقيقة فى هذا اليوم.

جاءتها مداخلة من إحدى الصحفيات اللاتى كانت تربطهن بها علاقة مودة وأحياناً عمل، لم تفتها تحية الصحفية باسمها قبل أن تبدأ حديثها، كانت حقاً فى أوجها.

لم أكن أحب تلك الصحفية على المستوى الشخصى، لقد كانت نسمة تستشيرها أحياناً فيما لا يجوز استشارتها فيه، حكت لها كثيراً عنى فقد كانت تحضر لزيارتنا وأحياناً تتناول معنا الغذاء، ثم جاء يوم أخبرتنى نسمة فيه أن "سامية" تجرأت وسألتها عن مصير العلاقة معى وأنها بدلاً من أن تتحفظ معها فى الرد أخبرتها بمجموعة المشاكل المحيطة بالموضوع فأجابتها الصحفية مخلصة لها النصيحة بالآتى:

ـ ممكن تنسيه بواحد غيره.

قالت لى نسمة هذا الحديث ببساطة وأنا من ناحيتى لم أعلق لكن كلام الصحفية أدهشنى.

لم أخبرها بالرد الذى كان يعتمل فى داخلى.

ثم رأيت الصحفية منذ وقت قريب جداً خارجة من مقهى وسط البلد الذى اعتدت التردد عليه فى الفترة الأخيرة فتذكرت وجهها، لم أتحدث معها وكأنى لا أعرفها، إلا أن صورة وجهها ظلت تجىء وتروح أمام عينىّ تلك الليلة وأفسدت على الشراب فى المساء.

٣٩

عبر "الشات" بدأت أتعرف على نسمة من جديد بشخصية أخرى، فعلت هذا لأكون قادراً على التواصل معها بدون أن أظهر شخصيتى.

كنت راغباً بشدة فى معرفة فى أى شىء تفكر، وكيف تنظر إلى الموضوع، وكيف تقيم ذلك العام المنقضى من حياتها والذى عاشت فيه ربما آخر قصة حب محتملة.

استمر الحوار شهوراً.

أنقل هنا بعضاً مما قالته:

- **ليس بالحب وحده ينجح الزواج، هناك الصداقة، القدرة على التفاهم، الأشياء المشتركة، التأثير والتأثر، وحتى بالرغم من كل هذه الأشياء إلا أن الحب قد لا يؤدى إلى الزواج وذلك لأسباب أخرى، كأن يكون الطرف الآخر متزوجاً، أو أصغر سناً أو أكبر بكثير، وهكذا.**

- **لم أستطع الاستمرار معه، كان من الممكن أن يصبح رجل أحلامى، وأنا فعلاً معجبة به، ولكنى أكره الصداع والمشاكل، ولقد كنا ولا نزال من أفضل الأصدقاء.**
- **هل قلت له أنك معجبة به؟**
- **هو يعلم.**
- **وما الذى أعجبك فيه إذن؟**
- **إنه نوع مختلف من الحب، لقد أضاء بداخلى أشياء كثيرة جميلة لم أكن أعلم بها عن نفسى، كما أنه أعطانى بعض الثقة في النفس التى فقدتها فى السنوات الأخيرة قبل أن أعرفه، وبالتالى فإنه هو الذى دفعني إلى الأمام وأنا مدينة له بكل هذا، لكنى لا أستطيع أن أرد له الثمن الذى يدمر به حياته، ابتعادى عنه قد يكون هو الوسيلة الوحيدة لرد الجميل.**

- **لا أستطيع أن أنظر إليه الآن كرجل حياتى، لايمكننى ذلك، لقد أصبح اليوم شيئاً أثمن من ذلك بكثير، وعلى الأقل هذا سيضمن لنا أن نبقى أصدقاء إلى الأبد بدلاً من علاقة حب جميلة ربما تنتهى يوماً ما، ولقد كانت علاقتى معه دوماً علاقة صداقة قبل أن تنقلب إلى حب، أفكر فى أننا كان يجب أن نبقى أصدقاء ونتجنب الحب، الحب الذي يؤدى بالتدريج إلى مطالب الزواج، ولكنى – من ناحية أخرى- أعتقد أن ذلك كان مستحيلاً.**

- **لم يكن مخلصاً لى مائة فى المائة ، ولكنى كنت في غاية الإخلاص له وهو يعلم ذلك.**
(كان ذلك صحيحاً).

ثم أخبرتها بأنه كانت لى أيضاً قصة حب منتهية فسألتنى لماذا انتهت.

- **السبب فى رأيى أننى أحسست معها بالإهانة فى أول العلاقة، (لم أوضح تحديداً ماهى الإهانة) وفى الواقع فقد اختزنت هذه الإهانة فى اللا شعور ثم بدأت فى الانتقام لاحقاً.**

قالت بنص الحوار:

- **يمكن انت معقد أو مكبر الحكاية، أو بتستهبل.**
- **لقد كنت دائما أحاول أن أفهمها، لأنى كنت أحبها بطريقة غريبة، ربما كان فيها نوعاً من الخضوع، لكن ماذا كنت أستطيع أن أفعل حيال إحساسى، وعلى أى حال هى لم تقدّر ذلك.**
- **لماذا تقول ذلك؟ إن هذا دليل على نقصان الثقة فى النفس.**
- **كلنا لدينا بعض من هذا المرض.**
- **ولكن نقص الثقة بالنفس والعقد الشخصية أمران صعب جداً احتمالهما فى الرجال، ولقد قلت إنك لم تستطع أبداً أن تسعدها كلية أو تحقق فى حياتها أية إضافة، كل هذا يعكس فشلاً فى العلاقة، من غير المنطقى أن تكون أحببت امرأة بهذا الشكل، أو ربما أنت لم تحبها على الإطلاق.**

٤٠

١٩ يونيو ٢٠٠٤

المرة الأخيرة على الإطلاق التى رأيت فيها نسمة، بعثت لى برسالة على الموبايل:

- انت صاحى؟ كلمنى.

- أخبارك ايه؟

- تمام، وأنتِ؟

- اسكت على اللى حصل.

- ايه؟

- البت سها.

- صاحبتك الإسكندرانية، مالها؟

- فاكر الواد اللى بدأت تخرج معاه بعد طلاقها؟

- أيوه، اللى كان بيعلمها "السالسا"، وكان عامل فيها مؤدب و قلت لكم ده واد وسخ وفى آخر مرة كان بيمرنها مسك صدرها.

- انت ماتعرفش اللى حصل بعد كده.

- ايه؟

- نامت معاه ودلوقت هى حامل، وعايزانى أروح معاها للدكتور وأنا خايفة (بدأت تبكى)، مش عارفة أعمل إيه، مش متعودة على المواقف دى.

- لو تحبى أروح معاها أنا للدكتور ما فيش مشكلة.

قالت بعد قليل من التردد:

- معلش، لا أظنها ستوافق على ظهورك معها بهذا الشكل، كمان لا أستطيع أن أخبرها بأننى قلت لك، أنا بس باحكى لك عشان أنت الوحيد اللى باعرف أكلمه.

- ولايهمك أى حاجة.

غيرتْ فجأة الموضوع.

- سمعت عن رواية جديدة اسمها "هلس الشياطين"؟

- أيوة، مالها؟

- بابى بيقول عليها إن هى دى الروايات ولا بلاش.

- ...

- قول لى، إنت عارف فين "ساقية الصاوى" دى؟

- مالها، فيها ايه؟

- الجماعة أصحابك بتوع الفرقة كلمونى و قالوا لى عن ميعاد حفلتهم الجديدة، يعنى.. بفكر أروح..لو عندك وقت.

- بكرة ح أعدى عليكِ ٨,٣٠

لماذا لم أقاوم؟

كان يجب أن أرفض اقتراحها.

حينما ركبت بجانبى ألفيت عطرها طاغياً هذه المرة، بدأت أفكر لماذا تفعل ذلك وما الذى ترمى إليه؟

أن تستبقينى فى حوذتها لمجرد الاستحواذ؟

ألم ننته منذ شهور ولم نعد نتكلم بالتليفون؟

لقد "زودتها" نسمة فما الذى تريده الآن؟

يعيدنى العطر إلى الذكريات، كانت رائحتها دائما ذكية، حتى إننى كثيراً ما كنت ألثم فخذيها خاصة عندما تخرج من الحمام بعد دش المساء، وألعقهما، وكنت أسألها دائماً ما نوع الصابون الذى تستحم به، وما كانت تجيب أبداً، الا فى المرة الأخيرة التى كررت عليها السؤال، كان قصدى أن أشترى من هذا الصابون لكى أتذكرها دائماً وأنا فى بيتى، يومها أجابت وكلها سعادة وكأنها تكشف سراً، أجابت بطريقة شعبية كنادلات وسط البلد:

- "Dove".

فى الساقية صممت على أن أتعامل معها بنوع من الحياد ولو قليلاً، فبدأت أستمع إلى الفرقة وهى بجانبى، هبت رياح ناعمة فبعثرت عطرها فى وجهى، وجدتنى وقد اقتربت منها قليلاً حتى لامس

فخذها فخذى وأحسست بحرارته، أيضا فقد زادت رائحة العطر وبدأت أشعر بالضعف، ابتعدت هى قليلاً بعد أن تلامسنا بما فيه الكفاية.

قالت لى ونحن متجهان إلى سيارتى:

- كنت مرة فى الجريون، المكان جميل فعلاً، جمعتنا قعدة مع الكاتب ده اللى دايماً غاوى مشاكل، مش باحب القعدات الجد زيادة عن اللزوم.

- مين هو؟

- مش فاكرة اسمه.

حاولت التخمين من جانبى.

- ...

نظرت لى نفس النظرة التى نظرتها لى عندما كانت فى حمام السباحة فى "كتراكت" ولم تكن تعرف اسم الخواجة الذى أرادت تقديمى اليه.

- حانروح فين؟

قلت لها:

- ممكن نروح ...، لم نزره من زمن.

أعجبتها الفكرة.

فى المكان وبعد بعض الشراب بدأنا الرقص، كانت ناعمة جداً تلك المرة، لم ترفض لى طلباً، وكانت تنادينى دائماً ب "يا حبيبى".

وأنا محتضنها ورأسها على كتفى مستريحاً، قلت لها:

- أريد أن أقول لك شيئاً لكن لا تأخذيه على محمل الجد أكثر من اللازم.

- قول.

- أنا فعلاً أحبك.

كان شعرها قد تبعثر قليلاً فجعلت أسويه بيدى، أمسح على رأسها وأضمه من خلف رقبتها، ثم أمسك بشحمة أذنها قليلاً بين إصبعى، وعلى جانب رقبتها كانت هناك بعض حبات العرق قد بدأت فى الظهور.

ثم ابتسمت وأنا أقول لها:

- ودلوقتى ممكن أسألك سؤال؟

- اسأل.

- انتِ ح تفضلى أجمل ست فى العالم لحد إمتى؟

كانت من قبل تجيب ب: "أنا مش أجمل ست فى العالم، انت اللى شايفنى كده"، أما اليوم فأجابت ورأسها فى صدرى بصوت كأنها تموء:

- لحد ما اموت.

ثم انفلت قرطها الذهبى من أذنها ووقع فى صدرى داخل ملابسى فانتبهتْ.

- هو راح فين؟

- جوايا.

مدت يدها إلى صدرى فقلت لها:

- تحت الفانلة.

مدت يدها إلى الداخل ثم إلى إسفل حتى كاد كفها يلامس بطنى وأنا أنحنى للأمام قليلاً حتى التقطته، وكانت هناك امرأة شابة تجلس وحيدة تنظر إلينا وأمامها زجاجة كاملة.

تذكرتُ أيام كنت آخذ نسمة إلى حفلات مركز الموسيقا، من أجمل ما كانوا يغنون أغنية عبد الوهاب "حسدونى"، كانت نسمة وقتها تنظر إلىّ باسمة كأننى أنا الذى يغنى الأغنية، كانت أيضاً تحاول أن تتكلم أثناء عزف الفرقة أو غنائها، وكنت أزجرها بتحديق باسم من عينى، لكنها كانت كثيراً ما تعاود وكأنها لم تفهم الرسالة، فكنت أضطر أن أرشوها بإحاطة كتفها بيدى لتستكين.

قلت لنسمة:

أهو "الحلّق" ده كان يبقى أحلى تذكار، مش أحسن من علبة الكبريت وغطاء زجاجة البرفان؟

كانت علبة الكبريت أول تذكار أخذته من نسمة فى مقابلة قديمة جداً عندما كانت علاقتى بها محدودة و كانت لا تزال حتى فى بدايات علاقتها بصادق. ظللت محتفظاً بالعلبة فى دولاب غرفتى بالفندق فى "الجونة"، كنت أعانى من الوحدة كثيراً هناك وكنت دائم الحنين إلى القاهرة حيث الصحبة والأصدقاء، وحيث نسمة أراها ربما كل إجازة حسب الظروف، إلى أن اختفى العطرمن علبة الكبريت بعد شهور فاضطررت إلى إلقائها، ثم حكيت لنسمة عن هذا الموضوع بعدها بسنوات.

أما غطاء زجاجة العطر فوقع من حقيبتها فى سيارتى بعد سهرة عيد الميلاد، كانت العلبة تقريباً فارغة فتركت الغطاء لى كذكرى، وهو مازال معى إلى الآن.

قالت نسمة كأنها تحلم:

- فيها إيه بس لو يسيبونا نعمل اللى احنا عاوزينه.

وعندما طلبنا الحساب رغبت نسمة فى أن تدفع نصيبها، لكنى أصررت على دفع الحساب كله، وقلت لها:

- انتِ المرَّه الجايه.

قالت لى الجملة التى كانت تمازحنى دائماً بها والتى لم أكن أدرى أنها للمرة الاولى حقيقة:

- لأ، ما هو مافيش مرَّه جايه.

وقبل أن تنزل من السيارة أمام بيتها قبلتنى فى فمى لأول مرة منذ زمن طويل.

ثم مر أسبوع وذهبت الى الاسكندرية فى إجازة وجاء عيد ميلادى فلم تهنئنى.

بعثت لها برسالة على المحمول:

- أنا عارف انك عارفه، لكن مش عارف ليه ما كلمتنيش.

فى اليوم التالى كلمتنى، كان صوتها به شىء غريب، قالت لى إن لديها أخباراً "مش و لابد".

- فيه إيه؟

- كتبت كتابى.

- ما إنتِ قلتِ لى قبل كده.

- لا انت مش فاهم، قصدى كتبت كتابى يعنى ح اتجوز.

- إزاى.

- ولا حاجة، يعنى أقصد ضغطوا علىّ، والراجل ما يترفضش، وأهلى كانوا عارفينه من زمان، لكن مش عارفه إزاى حصل كل شىء بسرعة، ياللا، أهى جوازه والسلام.

- مبروك.

- وانت كمان شد حيلك، وبعدين بقى بلاش رسايلك الغريبه دى على الموبايل، أكيد مش قصدك تهدم حياتى.

- هو أنا كنت أعرف حاجه؟

- أديك عرفت.

- بالتوفيق.

و للمرة الأولى لم أنتظر رداً.

أغلقت الموبايل وتركته فى المنزل، أخذت مفاتيحى ونزلت الى الشارع، وهناك قطعت الطريق

متمهلاً حتى عبرت طريق الكورنيش وجلست إلى السور.

حاولت استنشاق هواء البحر حيث يعيدنى إلى ذكرياتى الأولى فى الإسكندرية، كانت الأمواج عالية والجو بارداً غير مؤتلف مع شهر يونيو، وسحب رمادية ثقيلة تعبر السماء على غير العادة.

قمت من مجلسى، تمشيت على الكورنيش حتى وصلت إلى زيزنيا حيث كنت أسكن فى القديم، كانت الفيلا قد هدمت أخيراً بعد أن بيعت بعد وفاة الأقرباء منذ سنوات ، إستطعت أن أرى الأنقاض خلف السور الحديدى الصدىء، غير أنى أحسست بإرهاق مفاجىء لم أعرف سببه فبدأت أعود من حيث أتيت، ذهبت ثانية إلى الكورنيش، فى طريقى رأيت فندق "سان مارك" أحد الفنادق التى مررنا عليها يوم أن أمضينا ست ساعات نتلقى الإهانات فى الفنادق ونحن نحاول ايجاد غرفتين متجاورتين، تذكرت ماذا أسمينا ذلك اليوم: "ست ساعات من الإهانات"، كما تذكرت يوم أن اشترينا الإيشارب، وتذكرت سهراتنا فى "الشيخ على"، وتذكرت عندما كانت تنام على رجلى فى المنتزه، كان آخر ما تذكرته كلماتها لى على الإنترنت، خاصة عندما قالت لى إنها مدينة لى بالكثير، لكنها لا تستطيع أن ترد لى الثمن، وأن ابتعادها عنى قد يكون الوسيلة الوحيدة لرد الجميل.

وعندما حل مساء ذلك اليوم رأيت نفسى أقود السيارة فى اتجاه محطة الرمل، ثم أركنها فى الشارع الضيق وراء فندق سيسل صاعداً إلى السطوح.

لا أعرف ماذا كنت أبتغى.

لكننى شعرت شعوراً قوياً بالرغبة فى الذهاب.

طلبت مشروبى المعتاد وطبقاً من "السبيط" المشوى.

أخذت أشرب.

وفى الثالثة بالضبط قمت من مكانى، كان الهواء قد أصبح –لدهشتى- بارداً فقررت الانصراف.

ما كدت أدفع الحساب حتى حدث الشىء الأغرب.

كت قد وقفت مستنداً إلى السور متأملاً البحر عندما يكون لونه أسودَ مخيفاً فى الليل، فرأيت البحر السكندرى وقد انشق عنه وجه الشيخ علي. ظهر شعر رأسه أولاً ثم ظهر له وجه قاس، ثم ذقن سوداء ذات شعيرات بيضاء، فى البداية كان الوجه ملامساً للمياه إلا أنه ما لبث أن أخذ يصعد ويصعد حتى إنه – تقريباً - ملأ السماء كلها، أشعلت سيجارة لأتحقق من صدق ما أرى، وبينما كنت أجاهد نفسى لأفيق، إذا بى أتأكد من أننى أرى يديه أيضاً تخرجان من المياه، ثم تطولان حتى

تحوطان الأفق، ثم بعد الأفق تمتدان إلى البيوت وتسحبها الى البحر فتختفى فيه رويداً رويداً.
كانت ذكرى نسمة لا تزال تؤلمنى فرفعت يدى أتحدث إلى الشبح العملاق فى الظلام بينما كان هناك اثنان من عمال المطعم يبدو أنهما كانا يحاولان أن يقولا لى شيئاً لكنى لم أكترث.
بل دار بينى وبينه هذا الحوار:
- اتركْ هؤلاء الناس النيام فى البيوت وكفاك ما فعلته حتى الآن.
- وما شأنك؟
- هذا شعبى فاتركه.
- بل هذا شعبى أنا فامتثل.
لم يعبأ الشيخ، وابتلع معظم السكان، ثم صوب إلىّ نظرة طويلة مستهزئة.
ثم ابتلعنى.